سلسلة التفسير

سورة الفجر

وصور الطغيان وعاقبته

بن سالم باهشام

أستاذ العلوم الشرعية.

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه.

مقدمة

الحمد لله العلي الأعلى الوهاب، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات العلى، نحمده - سبحانه وتعالى- ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولن تجد له وليا مرشدا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدا عبد الله ورسوله، وصفوته من خلقه وخليله، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه، وصلى الله علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

وبعد، أوصي نفسي وإياكم بالعناية و الحرص على كتاب الله ﷻ، تلاوة وحفظا ومراجعة وتدبرا ، وعملا، فإنه حياة القلوب؛ وسكينة النفوس؛ ونور الصدور، قال الإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي- رحمه الله- : (ينبغي لتالي القرآن العظيم؛ أن ينظر كيف لطف الله تعالى

بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه).[1]

والحذر كل الحذر، أن يكون هدفنا فقط قراءة حروفه وحفظه، دون الغوص في كنوزه ومعانيه، والسعي للعمل به للاستفادة من خيراته، فقد عاب الله على المنافقين لما أعرضوا عن تدبر كتابه العزيز، فقال سبحانه في حقهم، وفي حق كل من سلك طريقهم: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾.[2]

قال الإمام القرطبي - رحمه الله -: (عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه و في معانيه).[3]

وقال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: (فقراءة آية بتفكر وتفهم، خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف؛ يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله تعالى: ﴿ **إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ**

---

[1] - مختصر منهاج القاصدين (ت: الأرناؤوط)، المؤلف: أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، ص46. المحقق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار البيان - مؤسسة علوم القرآن، سنة النشر: 1398 - 1978

[2] - سورة النساء، الآية 82.

[3] - تفسير القرطبي، (290/5). الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (ت: التركي)، المؤلف: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو عبد الله، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1427 – 2006، رقم الطبعة: 1.

الْحَكِيمُ ﴾[1]. فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب)[2].

خطة البحث :

حاولت في سلسلة المعين على تدبر كتاب الله المبين؛ من الحزب الأخير من القرآن الكريم، أن أعالج سبعة محاور أساسية في كل سورة من سور هذا الحزب، وهي كالتالي:

المحور الأول: قراءة السورة كاملة على يدي معلم للقرآن:

لهذا أوردت نص السورة كاملة في الأول، قصد قراءتها قراءة صحيحة وسليمة، وذلك بإتقان تلاوتها، والحفاظ على المخارج الصحيحة للحروف. والصواب أن تقرأ بين يدي معلم للقرآن، لتكون الانطلاقة صحيحة، لأن القرآن لا يتلقى من المصاحف مباشرة، وإنما من أفواه الحفظة المتقنين، وفي هذا قال العلماء: (لا تأخذ القرآن من مصحفيّ، ولا العلم من صحفيّ)،فالقرآن الكريم ليس كأي كلام عربي آخر، فهو كلام الله، يُقرأ بطريقة معينة تُسمى التلاوة والتجويد، ولا يمكن معرفة كيفية تلاوة القرآن وتجويده من المصحف فقط، بل لابد من مُحفظ للقرآن يُعلم، فتسمع من هذا المحفّظ وتقرأ أمامه وتتعلم على يديه، وتبدأ بقصار السور من حزب سبح، فتتلو القرآن كما سمعته منه، وذلك المحفظ هو

---

[1] - سورة المائدة الآية 118.

[2] - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (ط. مجمع الفقه)، المؤلف: ابن قيم الجوزية،(187/1). المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الناشر: مجمع الفقه الإسلامي – جدة، سنة النشر: 1432، رقم الطبعة: 1.

كذلك قد تلقاه سماعيا من معلمه، وهكذا تم التلقي سماعيا بالسند النوراني المتصل حتى يصل إلى رسول الله ﷺ، والقرآن لا زال يُتلى كما أُنزل منذ عهد النبوة بفضل محفظين ومعلمين ورجال سخرهم الله لحمل كتابه وحفظ كلامه، وهذا معنى (لا تأخذ القرآن من مصحفي)، أي لا تأخذه من رجل قرأ القرآن ما بين دفتي المصحف، وسنده في التلقي منقطع، لهذا تجده لا يحسن التجويد ولا التلاوة، لأن قراءة القرآن دون ضبط حروفه وتجويده ليست تلاوة. والقرآن والعلم لا يؤخذان من بطون الكتب، وإنما من أفواه العلماء.ولا يشك أحد في أهمية الجلوس بين أيدي العلماء، لا للعلم المجرد فحسب، ولكن من أجل التربية والتزكية كذلك وهي الأساس، فقد كان عصر السلف رضوان الله عليهم عصر كله بركة وازدهار، لأنهم تلقوا القرآن والعلم بالطريقة الصحيحة، صحبة وعلم، ولقد كان سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ يدارسه جبريل عليه السلام القرآن مرة كل رمضان.

المحور الثاني:التعريف بالسورة ويتضمن:

1 - سبب تسمية السورة. **2** - تصنيف السورة. **3** - عدد آيات السورة. **4**- ترتيب السورة في المصحف. **5**- ترتيب السورة في النزول. **6** –فضل السورة إن صح أثر في فضلها ،7 – سبب نزول السورة، إن كانت تلك السورة لها سبب نزول.

المحور الثالث: مقصد السورة:

يمكن أن يُعَرّفَ مقصد السورة بأنه: مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها، ويمثل روحها الذي يسري في جميع أجزائها. فعندما يُنظر إلى المقصود، يوجد مركوزاً في كل موضوع من موضوعات السورة، ويوجد بيّناً واضحاً، يتراءى عندما يُدقق في النظر، ويُتأمل تأملاً جيداً.

ويمكن أيضا أن يقال بعبارة أخرى: إن مقاصد السور: علمٌ يعرف به مغزى السورة الجامع لمعانيها، ومضمونها. والمغزى يعني الحكمة التي قصدت السورة لتحقيقها؛ والهدف الأعلى؛ والغاية العظمى التي جاءت السورة لتحقيقها.

المحور الرابع: علاقة السورة بما قبلها.

المحور الخامس: فقرات السورة ومضامينها.

المحور السادس: تفسير فقرات السورة والعلاقة بينها .

المحور السابع: هداية آيات السورة.

كل هذا ليسهل التعامل مع القرآن الكريم الذي هو الكتاب المبين، ويتحقق به إن شاء الله الهدف المنشود؛ وهو الإعانة على الاطلاع على معاني سور حزب سبح الذي يعتبر أكثر الأحزاب قراءة في الصلاة وخارجها، وأكثرها حفظا. ليسهل فهمها والعمل بما فيها.

بمكناس الجمعة 16 شعبان 1441 الموافق 10 أبريل 2020

المحور الأول:
نص سورة الفجر كاملا

﴿سورة الفجر مكِّيَّة و آياتها 32 آية﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ
﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ
لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ

﴿١٠﴾ اِلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي اِ۬لْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا
اَ۬لْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ ﴿١٣﴾ اِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا
اَ۬لِانسَٰنُ إِذَا مَا اَ۪بْتَلِيٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ
وَنَعَّمَهُۥ ﴿١٥﴾ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِۦ ﴿١٦﴾ وَأَمَّآ
إِذَا مَا اَ۪بْتَلِيٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴿١٧﴾ فَيَقُولُ
رَبِّيَ أَهَٰنَنِۦ ﴿١٨﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ
اَ۬لْيَتِيمَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَحُضُّونَ عَلَيٰ طَعَامِ
اِ۬لْمِسْكِينِ ﴿٢٠﴾ وَتَاكُلُونَ اَ۬لتُّرَاثَ أَكْلًا

لَّمّاً ﴿٢١﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴿٢٢﴾ كَلَّآ
إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴿٢٣﴾ وَجَآءَ
رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴿٢٤﴾ وَجِاْيٓءَ
يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴿٢٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ
وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٦﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ
لِحَيَاتِي ﴿٢٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ
﴿٢٨﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٩﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا
ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٣٠﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ

رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٣١﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَٰدِي
وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٢﴾ ۞ (ربع)

المحور الثاني:
التعريف بسورة الغاشية.

1- سبب تسمية السورة:

بدأت هذه السورة بالقسم بوقت الفجر ، ولهذا سميت السورة بهذا الاسم، ويتضح اسم السورة من مطلعها ، مثل الكثير من سور القرآن الكريم، ولم يعرف لهذه السورة اسم سوى (الفجر) في المصاحف والتفاسير والكتب الستة.

2 - تصنيف سورة الفجر.

سورة مكية نزلت قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة .مادام جُلُّ موضوعها هو العقيدة، وتركز على أمر واحد منها وهو البعث يوم القيامة، فإن كفار مكة كانوا هم المكذبين بهذا الاعتقاد ، وبهذا التصور الذي يعرضه الله عليهم ليؤمنوا به، فالسورة مكية، وخاصة أنها تبدأ بالقسم **(وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ* هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)** [1]، هذا قسم، وإنما يقسم للمكذب، ويحلف للمنكر، وهؤلاء كانوا في مكة، أما المدينة فكل من كان فيها كان يستمع ويقر، يستمع إلى الشرع والرأي ويقر به، قلبًا وقالبًا، وهم المؤمنون الخُلَّص، أو ظاهرًا فقط وقلوبهم منكرة وهم المنافقون، ولكن ما كانوا يعارضون ولا يكذبون تصريحًا، فيحلف للمكذب المصرح بتكذيبه، يحلف له ليصدق، يحلف له لتقام عليه حجة، فما عادت لك حجة، أخبرناك وأقسمنا لك

---

[1] - [الفجر: 1- 5].

وضربنا لك الأمثال وحاورناك، ماذا تريد بعد ذلك؟! يوم القيامة **(هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)**[1].

فوجود القَسَم في أول هذه السورة دليل على أنها أيضًا نزلت في مكة قبل الهجرة، حديث من الله تعالى مع الناس في مكة، ويمتد طول العمر إلى كل كافر، تشابه في اعتقاده وتصوره للحياة، تشابه في ذلك مع أهل مكة تكذيبًا وإنكارًا وعنادًا، فهذا القسم له أيضًا، وهذه السورة تخاطبه.

3 - عدد آيات سورة الفجر:

اختلف في عدد آيات سورة الفجر وهذا تفصيل ذلك:

32 آية: هو عدد آيها عند أهل العدد بالمدينة ومكة ، عدُّوا قوله: **(فأكرمه ونعمه)**[2]، منتهى آية، وقوله: **(فقدرعليه رزقه)**[3]، منتهى آية ، عدهما المدنيان والمكي ولم يعدهما الباقون. منتهى آية.

30 آية : عند أهل العدد بالكوفة والشام . فأهل الشام عدُّوا **(يومئذ بجهنم)**، لم يعدها الكوفي والبصري ، وعدها الباقون. وأهل الكوفة عدَّوا **(في عبادي)**[4]، منتهى آية[1]. ولم يعدها الباقون.

---

[1] - [المرسلات: 35، 36].

[2] - (الفجر: 15).

[3] - (الفجر: 16)

[4] - (الفجر: 29)

29 آية: عند أهل البصرة [2].

4 - ترتيب سورة الفجر في المصحف:

ترتيب سورة الفجر بالمصحف التاسعة والثمانون . 89 بعد سورة الغاشية، وقبل سورة البلد.

5- ترتيب سورة الفجر في النزول:

سورة الفجر رتبت 10 في النزول، نزلت بعد سورة الليل. وقبل سورة الضحى.

6 – فضل سورة الفجر.

لم يرد عن رسول الله صل الله عليه وسلم فضل خاص في تلاوة آيات سورة الفجر، فهي مثل كثير من سور القرآن الكريم لم يرد في شأنها فضل خاص، وتلاوة القرآن الكريم لها فضل عظيم نتعلم من قراءة آياته الكثير من العبر والعظات، وتحتوي سورة الفجر على قصص الأمم السابقين

---

[1] - (الفجر: 23).

[2] - تفسير التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر.

وتكذيبهم المرسلين. ونتعلم من خلال هذه السورة كيف نعبد الله ونخلص في عبادته وحده لا شريك له، وأن لا نكون من المكذبين الضالين الجاحدين لنعم الله، وقد ضرب الله لنا الكثير من الأمثلة على الأمم المكذبة، ومنهم قوم عاد ، ولابد أن نتعلم من هذه القصص حتى لا يكون مصيرنا كمصير الأمم السابقة المكذبة للمرسلين، أعاذنا الله وإياكم أن نكون من القانطين.

7 – سبب نزول سورة الفجر:

يذكر أن السبب في نزول سورة الفجر هو قيام عثمان بن عفان ﷺ بشراء بئر رومة ، حتى يسقي الناس منه بعد أن سأل رسول الله صل الله عليه وسلم من يشتري بئر رومة يستعذب به ويسقي الناس منه غفر الله له ، وحينها أجاب عثمان بن عفان ﷺ بأنه يشتري البئر ليسقي الناس منه ، عن عبد الله بنِ عباس -ﷺ- أنَّ النَّبيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: **(من يشتري بئررومة يستعذب بها غفر الله له، فاشتراها عثمان بن عفان ﷺ، فقالَ: هل لك أن تجعلها سقاية للناس؟، قالَ عثمان: نعم"، فأنزل الله تعالى في عثمان بن عفّان -ﷺ- قولَهُ: "يا أيَّتُها النَّفس المطمئنة * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي").**

المحور الثالث:
مقصد سورة الفجر.

مقصد كل سورة، هو أصل معانيها التي ترجع إليه ، فهو أصل في فهم معاني كلام الله تعالى، ولهذا فإن معاني السورة لا تتحقق إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، واستخراج مقصدها، ولا نستطيع الوصول إلى كل المعاني في السورة، إلا بعد أن ننظر في موضوعات هذه السورة، ثم نفهم الرابط والمقصود الأعظم الذي يجمع هذه الموضوعات، وترتبط وتلتئم به آيات هذه السورة، عندها؛ إذا أعدنا النظر في هذه السورة، من أولها إلى آخرها فهمنا فهما آخر، وعرفنا لماذا ذكر هذا هنا، ولماذا افتُتح بهذا، واختُتم بذاك، فهذه مهمات عظيمة جدا تعيننا على فهم كلام الله، وتبين لنا مقاصد الآيات وأسرار وضع هذه الآيات في السورة. يقول الشاطبي – رحمه الله -: " اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة، إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما، لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها"[1].

وإذا نحن نظرنا في أقوال السادة المفسرين ما وجدنا هناك أي معنى جامع لهذه السورة، ولا حتى بعض المواضيع المتصلة ، بل قدموا السورة بعض الآيات المنفصلات التي لا يربطها رابط، ولا يضمها موضوع، ولأنهم

[1] - الموافقات في أصول الشريعة، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي/الشاطبي ، القسم الرابع، كتاب الأدلة الشرعية ج2ص 266.

يقبلون أن تكون سور القرآن بعض الآيات المنفصلات ، احتاروا أيما حيرة في معاني الآيات الواردة في أول السورة ، وعلاقة القسم بالمقسم به، والمقسم عليه، أما نحن فلأننا نؤمن أن آي القرآن هي كلام أحكم الحاكمين، علمنا أنه حتما ثمة علاقة بين المقسم به والمقسم عليه.

وبمعرفةِ مقصدِ السّورة، تنتظم آياتها، ويظهر التناسب بينها، فتكون لُحْمة واحدة يجمَعُها معنًى واحدا. فإذا عُرف المقصود، عُرف لماذا ذكر الله هذا؟

والآن نأتي إلى سورة الفجر، فبعد الاستقراء و التأمل، نجدها تناقش قضية من أهم القضايا الإنسانية، وهي: " **الحياة الجديدة، وانكشاف الحقائق**"، وعلى رأس هذه الحقائق، أن الله مطلع على عباده ، **(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)**[1]، **وهي جواب القسم،** فهو سبحانه بالمرصاد لكل أصناف الطغيان: الجسدية المتمثلة في عاد، والعمرانية المتمثلة في ثمود، والسلطوية المتمثلة في فرعون، والنفسية المتمثلة في الإنسان المجرد من منهج الله. فبسورة الفجر، ينبلج فجر الحقائق، وتنكشف عند التأمل، وفي كل كلمة فيها بيان، ومصباح نور يكشف حقيقة كونية أو شرعية أو سنة إلهية. ولم يعرف لهذه السورة اسم سوى (**الفجر**) ، سواء في المصاحف، أو التفاسير، أو الكتب الستة. فمهما طال غياب الحقائق ،

---

[1] - [الفجر: 14].

وانخدع الناس بالمظاهر الزائفة المغرية والخلابة، لا بد لها أن تكشف وتظهر، إما في الدنيا وإما في الآخرة.

سورة الفجر تأذن بميلاد جديد، لحياة جديدة، بحركة جديدة، كما تشير كلمة الفجر عنوانًا على هذه السورة، إشارة إلى موضوعها، و الذي هو في نهاية المطاف، يوم القيامة، قال تعالى: **(إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم)**، وقال سبحانه: **(إن إلى ربك الرجعى)**، إيحاءات قرآنية لطيفة، كأن اسم الفجر الذي هو عنوان على هذه السورة، يوحي الله من خلاله إلى العباد، أن الذي يعيد الحياة للفجر بعد الليل إذا يسر ، فيمضي الليل ويأتي الفجر، إيذانًا بيوم جديد من حياة جديدة، فيه عمل جديد ، في شؤون جديدة، فيه رزق جديد، فيه أحوال غير الأمس، وقدر على إحداث تلك الآية مرة بعد مرة ، أمام أعينكم، لقادر على أن يعيد الحياة كلها من جديد، يوم يبعث العباد.

فإذا كان الله تعالى قد خلق حياة محدودة وزائلة في هذه الدنيا، وجعلها مبتدأ، فقد أعد حياة دائمة أبدية في الآخرة وجعلها خبرا، والجملة لا تتم إلا بالمبتدأ والخبر، وكذلك الحياة لا تتم إلا بوجود بعث ودار آخرة، فلماذا تستعظمون الحياة الأخرى بعد الحياة الأولى، وقد رأيتم يومًا بعد يوم ، وفجرًا بعد ليل، وحركة بعد سكون ، حياة جديدة تكون بعد الليل الذي يسري ويذهب، وتتمثل في بعثة الإنسان المتكررة عند استيقاظه من النوم كل فجر بعد الموتة الصغرى، قال تعالى في سورة الزمر: **(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ**

وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[1]، وعند الاستيقاظ يفرح العبد بالبعثة المتجددة لحياة جديدة، فيحمد الله عليها، ويسعى لتكون أفضل من أمسه، عن البراء بن عازب ﵁ أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قال : **("اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت "، وإذا استيقظ قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ")**[2]، والحياة الجديدة تكون بعد فترة الظُّلم؛ والظَّلَمة الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، **إن ربك لبالمرصاد**، والحياة الجديدة الدائمة التي تكون بعد الموت، ويكون العبد فيها قد أفلح وفاز في الابتلاء الدنيوي، سواء كان ممن بسط رزقه، أو ممن قدره عليه ، فأدخله الله تعالى في سرب عباده الصالحين، لأنه أ كرم اليتيم، وحض على طعام المسكين، ولم يكن عبدا للدينار ولا للدرهم ولا للقطيفة، ولم تكن الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه، ولا منتهى غايته، بل أنفق ماله وابتغى به وجه ربه الأعلى، وبهذا كان ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

إن أسباب الكرامة ، إنما هي في طاعة الله عز وجل والإحسان إلى خلقه، فمن أخذ بأسباب الكرامة في الدنيا ، أُورث كرامة أخرى يوم القيامة، ومن أخذ بأسباب المهانة في الدنيا، عذبه الله عذابا شديدا في الدنيا ، وله في الآخرة عذاب النار، عذابايظن معه ألا أحد أشد منه عذابا، يوم تتكشف الأمور على حقيقتها، فتظهر الحقائق، يوم تصبح هذه الأرض هباء منثورا،

---

[1] - [الزمر: 42].

[2] - أخرجه مسلم في صحيحه ج4/ص2083 ح2711

ويقف الإنسان في موقف مهيب ، ينظر إلى ما قدمت يداه، نادما على ما كان منه من تفريط، حيث لا ينفع الندم، وحينها تظهر حقيقة الكرامة والمهانة، فأما المهان على الحقيقة ، ففي عذاب لا يذوق أحد مثله، وأما المكرم على الحقيقة ففي طمأنينة وسكينة مع عباد الله في جنته. ومناسبة اسم سورة الفجر، للمقصد الذي هو الحياة الجديدة وانكشاف الحقائق، أن الاسم في غاية المناسبة للمقصد، إذ أن الفجر وهو وقت طلوع الصبح ، وانتشار الضوء ، هو وقت حياة الإنسان واستيقاظه من النوم، وظهور الأشياء والأمور على حقيقتها ، بعد أن كانت ملفوفة في ظلام دامس، أسبغه عليها ليل طال، ثم لم يلبث أن سرى، وكذلك حال الأشياء في الدنيا، لا تظهر على حقيقتها أول وهلة، بل تبقى دهرا على ما هي عليه، تغر كل ناظر ينظر إليها، فيمهل الله الظالم حتى يظن مَن حَوله أنه تمكّن، ويعطي أشخاصا ويمنع آخرين، فيظن أكثرهم ارتباط الكرامة بالعطاء، حتى إذا جاء أمر ربك بالعذاب في الدنيا ، أو قامت القيامة ، تكَشّفت الحقائق وظهرت، فموازين الله مختلفة عن موازين الخلق ، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عَنْ سَهْلٍ ﵁ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: **«مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: « مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ**

يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»، وكما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا : "فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا "»**، وكما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الخُزَاعِيَّ - ﷺ - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **(أَلاَ أُخْبِرُكُم بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)**، ومثل هذا كثير. وأقرب آية في كتاب الله تعبر عن مثل هذا المعنى ، ما ورد في قوله تعالى: **(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)**[1]، فذكر فيها سبحانه وتعالى النهايتان: الساعة والعذاب. ففي هذه الآية ، جعل الوعد يتحقق بأحد أمرين: إما العذاب النازل في الدنيا كما حصل مع الأقوام المذكورة في سورة الفجر، وإما الساعة كما ذكر في آخر سورة الفجر، وصدق الله عز وجل حين وصف كتابه بأنه متشابه مثاني. فما هي الحقائق التي وردت في سورة الفجر؟ وما هي الأمور التي غطت عليها ؟ وما هي الأوقات التي تكشفت فيها؟ ذكر في هذه السورة نوعان من الأمور التي تغطي عادة على الحقائق:

أحدها: على مستوى الأمم:

[1] - سورة مريم، الآية 75.

حيث تغتر هذه الأمم أو طواغيتها بقوتهم، وما وهبهم الله من النعمة والقوة، فتسلبهم عقولهم وقلوبهم وتغشى أبصارهم، فيظنون أنهم معجزون.

الثانية: على مستوى الأفراد:

حيث يعتقد ارتباط الكرامة والمهانة بالعطاء المادي ، نتيجة انغماسه في هذه الدنيا المنقطعة، ولا يردعه في ذلك موت مَن حوله ، ونقصهم شيئا فشيئا، وأحيانا ينزل الله العذاب على أقوام فيرون الحقيقة في الدنيا عذابا يأتيهم فيهلكهم عن بَكرة أبيهم، والقصص في ذلك كثيرة، وأحيانا يؤخر الله أقواما فتنكشف لهم الحقائق يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، فيتمنون فيه لو أنهم قدموا ليومهم هذا ، ولات حين مناص. كما أشارت الآيات من سورة الفجر إلى حقيقةٍ غاية في الأهمية ، وجديرة كل الجدارة بالانتباه والاهتمام ، ألا وهي أن: (**الحياة ابتلاء**) بحلوها ومرها ، بعطائها ومنعها ، وهذا واضح في قوله تعالى : **(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه،...وأما إذا ما ابتلاه...)**. وأخطر الحقائق وأكثرها إيلاما وخفاء عن الناس، أشارت إليها السورة هي : (**يا ليتني قدمت لحياتي**)، أي حين يعلم المرء أن الحياة الحقيقية، ليست هي الدنيا الفانية التي يعيش فيها وإنما هي الحياة الآخرة الأبدية التي تنتظره.

المحور الرابع: فقرات سورة الفجر ومحاورها الأساسية:

يمكن تقسيم سورة الفجر بوضوح إلى فقرات أربعة:

الفقرة الأولى:من الآية 1 وتنتهي بالآية 5.

محور الفقرة الأولى: القسم بأزمنة إهلاك الطغاة.

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾[1].

معالم ملحمة الأقدار، وتغاير وجه الزمان، تتبدى في إقبال النهار "الفجر" وإدبار الليل شيئا فشيئا "إذا يسر"، وبينهما الشواهد الميدانية التي تؤكد هذه الحقيقة الكونية، وهي أيام العقاب التي هي "ليال عشر" والتي لحقت عادا في سبع ليال، وثمود في ثلاثة أيام، والعطاء والمنع في "الشفع والوتر"، فتدبر سنن الله في الكون، بصيرة لذوي لأصحاب العقل، لوعي سنن تدافع الحق والباطل.

الفقرة الثانية: من الآية 6 وتنتهي بالآية 14

محور الفقرة الثانية: كشف حال الطغاة وما أوتوا من القوة

---

[1] - [سورة الفجر الآيات 1 - 5].

والجبروت حين أهلكهم الله.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[1].

صور الطغيان والباطل ، وتنوعها بين الطغيان بقوة الأجساد المتمثلة في عاد، أو قوة الصناعة والبناء المتمثلة في ثمود، أو قوة القهر والبغي المتمثلة في فرعون، وكلها تشترك في تجاوز الحد والبغي الذي يستجلب عذاب الله .

الفقرة الثالثة: من الآية 15 وتنتهي بالآية 22

محور الفقرة الثالثة: كشف حقيقة الإنسان في ظنه أن الكرامة والمهانة مرتبطة بالإعطاء والمنع الدنيوي.

---

1 - [سورة الفجر، الآيات 6 - 14]

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴿١٥﴾ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴿١٧﴾ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٨﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٢٠﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿٢١﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٢﴾﴾[1].

بَيَانُ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالى في ابْتِلاَءِ العِبَادِ في هَذِهِ الحَيَاةِ بالخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالغِنَى وَالفَقْرِ ، وَطَبِيعَةِ الإِنْسَانِ في حُبِّهِ الشَّدِيدِ لِلْمَالِ.

وبداية الطغيان على مستوى النفس، عندما تتمحور حول ذاتها، وتتشوف للتملك والعلو ، فإذا أُعطي المرء فرح، وإذا حُرم سخط ، وليس هذا ميزان الحق ، وهذا الخلل على مستوى النفس يزداد حتى يستولي حب المال على النفس، وتموت الرحمة ومعاني الإنسانية في النفس ، فلا ترحم يتيما أو مسكينا .

[1] - [سورة الفجر الآيات 15 - 22]

هكذا تتأسس دول الطغيان على مستوى المفاهيم والأخلاق والقيم ، فيتحول المجتمع إلى صورة مشوهة من الوجود الإنساني ؛ في تجانس بين اتباع الشهوات والطغيان.

الفقرة الر ابعة: من الآية 23 وتنتهي بالآية 30

محور الفقرة الر ابعة: وقت انكشاف الحقيقة في مشهد مهيب من مشاهد يوم القيامة.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴿٢٣﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴿٢٤﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴿٢٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٦﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٨﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٩﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٣٠﴾

ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٣١﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٢﴾﴾[1].

النفوس المشوهة، لا تقبل نصح ا أو توجيها في الدنيا، حتى يأتي يوم الحق، لتذوق ويلات أفعالها وحيدة ذليلة.

وفي ظل هذه الملحمة، تنجو نفوس مطمئنة لوعد الله، وبمعية الله، وباتباع أمره ، فازت في الدنيا بالصبر مع الصالحين والكينونة معهم صحبة وجماعة وذكرا وصدقا وبذلا وعلما وعملا وسمتا حسنا وتؤدة واقتصادا وجهادا، فهنيئا لها رضاه ا بقدر الله ورضا الله عنها، وقربه وجنته، والحشر مع من كانت معهم في الدنيا من عباد الله ممن عاشرتهم، وممن سبقوها بالإيمان.

إنها ملحمة الفجر حيث يُدْبر الليل ، ويُقبل النهار ، حريٌّ بأولي الألباب تدبرها، للتفقه في سنن الله في الأزمان .

1 - [سورة الفجر الآيات 23 - 32]

المحور الخامس: علاقة سورة الفجر بسورة الغاشية التي قبلها.

الْمُنَاسَبَةَ عِلْمٌ شَرِيفٌ، تُحْزَرُ بِهِ الْعُقُولُ، وَيُعْرَفُ بِهِ قَدْرُ الْقَائِلِ فِيمَا يَقُولُ. وَفَائِدَتُهُ: جَعْلُ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ، بَعْضُهَا آخِذٌ بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ، فَيَقْوَى بِذَلِكَ الِارْتِبَاطُ، وَيَصِيرُ التَّأْلِيفُ حَالُهُ حَالَ الْأَكِيدِ الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ الْمُتَلَائِمِ الْأَجْزَاءِ. وَقَدْ قَلَّ اعْتِنَاءُ الْمُفَسِّرِينَ بِهَذَا النَّوْعِ لِدِقَّتِهِ، وَمِمَّنْ أَكْثَرَ مِنْهُ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ وَقَالَ فِي تَفْسِيرِهِ: " أَكْثَرُ لَطَائِفِ الْقُرْآنِ مُودَعَةٌ فِي التَّرْتِيبَاتِ وَالرَّوَابِطِ ".

1 - **سورة الغاشية:** ذكر في سورة الغاشية الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة.

سورة الفجر: وذكر في سورة الفجر التي بعدها طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وطوائف من الطائعين الذين وجوههم ناعمة.

2 - **سورة الفجر:** القسم الذي في أول سورة الفجر دليل على صحة ما تضمنته خاتمة سورة الغاشية. من الوعد والوعيد

سورة الغاشية: الختم بالوعد والوعيد يؤكده قسم أول سورة الفجر.

3 - **سورة الغاشية:** ختمت سورة الغاشية بأنه لا بد من الإياب إلى الله والحساب، فقال سبحانه: **(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)**[1].

[1] - [الغاشية: 25، 26]

سورة الفجر: كان تغيير الليل والنهار في سورة الفجر، وتجديد كل منهما بعد إعدامه، دالاً على القدرة على البعث، (**وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**)[1].

4- **سورة الغاشية:** تتحدث عن غيب، من وعد للمطيعين يوم القيامة ووعيد للعصاة.

سورة الفجر: تتحدث عن عالم الشهادة،وقدرة الله النافذة فيمن توعدهم، من الطغاة المتجبرين . فإذا استبعد الشخص ما توعد الله به العصاة يوم القيامة في سورة الغاشية، سيق له نموذج العقاب الذي لحق بعض الطغاة والجبابرة في هذه الحياة الدنيا، فالذي أهلك عادا وثمود وفرعون وغيرهم، وهي حقيقة مشاهدة لا ينكرها أحد، قادر على تحقيق ما توعد به الوجوه الخاشعة العاملة الناصبة يوم القيامة.

1 - [الفجر: 1 - 4]

المحور السادس:
سورة الفجر.
شرح وبيان.

محور الفقرة الأولى:
القَسَم بأزمنة إهلاك الطغاة.

الفقرة الأولى: من الآية 1 وتنتهي بالآية 5.

معالم ملحمة الأقدار، وتغاير وجه الزمان، تتبدى في إقبال النهار "الفجر" وإدبار الليل شيئا فشيئا "إذا يسر" ، وبينهما الشواهد الميدانية التي تؤكد هذه الحقيقة الكونية، وهي أيام العقاب التي هي "ليال عشر"، والتي لحقت عادا في سبع ليال، وثمود في ثلاثة أيام، والعطاء والمنع في "الشفع والوتر"، فتدبر سنن الله في الكون ، بصيرة لذوي الألباب ، لوعي سنن تدافع الحق والباطل .

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾[1].

أولا : القسم في فواتح السور في القرآن :

جاء القسم في القرآن الكريم في فاتحة السور المكية في ست عشرة سورة[2]،

[1] - [سورة الفجر الآيات 1 - 5].

[2] - نحو: **1** – (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)، **2** – (وَالذَّارِياتِ ذَرْواً)، **3** – (وَالطُّورِ)، **4** – (وَالنَّجْمِ إِذا هَوى)، **5** –(وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً)، **6** – (وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً)، **7** - (وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ)، **8** - (وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ)، **9** - (وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ)، **10** - (لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ)، **11** - (وَالشَّمْسِ وَضُحاها)، **12** - (وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى)، **13** - (وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى)، **14** -

1 - ظاهرة القَسَم في القرآن.

كثير من سور القر آن تحتوي على قَسَم، حيث يقسم الله بمخلوقات كونية، لكالشمس والقمر، و الليل و النهار، و التين و الزيتون.. الخ . و مع أن الكثير من العلماء المسلمين والغربيين على السواء ، انتبهوا لهذه الظاهرة في القر آن، إلا أن تفسيرا مقنعا لم يحصل. لظاهر ة القسم في القرآن، وهذا ما جعل الكثير من العلماء - من مثل ابن حزم (ت 1064م)- يعتقدون أن الآيات التي تحتو ي القسم تساوي بمجموعها "الآيات المتشابهات" التي تحدثت عنها سورة آل عمران في قوله تعالى: **(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)**[1]، بمعنى لا يعلم مغزاها الحقيقي سوى الله؛ بحسب تعريف ابن حزم للمتشابه. وحاول البعض الآخر تفسير السبب في تكرار الله القسم في القر آن على اختلاف المواضع، من أمثال محاولات ابن القيم (ت 1356م) في كتابه "التبيان في أقسام القرءان"، إلا أنهم لم يوفقوا في وضع نظرية متناسقة ونظامية لتفسير هذه الظاهرة .

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)، **15** - (وَالْعادِياتِ ضَبْحاً)، **16** - (وَالْعَصْرِ)...إلخ.

[1] – [آل عمران: 7].

وفي نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، وضع الباحث المسلم حميد الدين فراهي "Farahi" (نسبة إلى مولده في قرية Phreha في الهند) (1863-1930م)،نظرية أكثر اتساقا و تناسقا وجدّية ، وأكثر منطقية ممن سبقه في تفسير السبب في تكرار الله سبحانه القسم بالكثير من الأمور في القرآن[1].

في البدء قام الأستاذ فراهي بوضع نظريته حول ظاهرة القسم في عدد

2 - الرأي القديم السائد حول ظاهرة القسم في القرآن

محدود من آيات القر آن التي تحتوي قسما، ومن ثم تركها لتلاميذه لكي يكملوا مشروعه، فحاولوا تطبيق نظريته على باقي الآيات.

التعريف التقليدي العام لجملة القسم حسب الزركشي (ت 1392م): " القسم جملة يؤكّد بها الخبر" ، و هو ما كرره السيوطي من بعده (ت 1505م)، حين قال: إن القسم "يقصد به تحقيق الخبر و توكيده" ، ويدور الفهم القديم لآيات القسم حول محور التأكيد و التوكيد، وإظهار جانب عظمة و أهمية الشيء المقسم به ، أو المقسم عليه ، أو كليهما. فعندما يقسم الله بالأول على الثاني، فمن المحتمل أن الله سبحانه أراد التأكيد على الثاني ، و إظهار أهميته ، و أيضا يريد التأكيد على عظمة الأمر الأول و أهميته ، ومن أمثلة من ذهب لهذا الفهم كما جاء في بطون كتب التفسير القديمة، كتاب الرازي (ت 1230م)، والزمخشري (ت 1144

[1] – انظر كتاب الإمام عبد الحميد فراهي، وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، الدكتور محمد فريد راوي، دار الشاكر للطباعة والنشر والتوزيع، سلا نجور ماليزيا. الطبعة الأولى2015.

م) و غيره. و المشكلة في هذا التفسير التقليدي لآيات القسم في القر آن هو عدم قدرته على إجابة التساؤل حول طبيعة العلاقة ما بين المقسم به والمقسم عليه، فكمثال بسيط: لو أخذنا قوله تعالى: (**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم** ..الخ)، فإن القول التقليدي: إن الله تعالى أقسم بالتين و الزيتون ..الخ لكي يؤكد على الحقائق التالية: "خلق الإنسان في أحسن تقويم و ما يليه" ، هو قول يعجز عن توضيح العلاقة ما بين التين و الزيتون ، و طور سينين ، وهذا البلد الأمين "مكة"، و ما بين خلق الإنسان في أحسن تقويم، و من ثم ردّه أسفل سافلين ، فـإذا لم يكن هناك ثمة علاقة ما بين المقسم به والمقسم عليه، فإن تبديل كلمات القسم في مكان، بكلمات قسم أخرى من مكان آخر ، يجب أن لا يعطي فرقا في النتائج ، و ذلك على فرض أن النتيجة النهائية هي تعظيم كلٍ من الأمرين منفصلين: المقسم به ، و المقسم عليه، يعني لو كان الغرض من القسم هو مجرد إظهار عظمة و أهمية الأمور المذكورة في آيات القسم، لما كان لدينا مشكلة في قراءة الترتيب الآتي، وقلنا مثلا :"و القلم و ما يسطرون ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"، بدل والتين والزيتون، على فرض أن الغرض من القسم هو فقط إظهار عظمة المقسم به، و التوكيد على أهمية القلم و الكتابة ، و خلق الإنسان في أحسن تقويم.. إن التفسير التقليدي للقسم ، يفشل في حتى مجرد وضع فرضية تصلح لتفسير الترابط والعلاقة (إن وجدت) ما بين المقسم به ، و المقسم عليه. إن عدم قدرة المفسرين التقليديين على فهم

طبيعة و مغزى القسم في القر آن، كان هو السبب وراء انتشار الاعتقاد السائد أن الله عندما يقسم بشيء، فإنه يكون بهدف تعظيم ذلك الشيء، و توكيد المقسم عليه.

3 - أصل القسم عند العرب و أنواعه:

إذا رجعنا لأنواع القسم وأصله في التاريخ العربي الذي نزل القرآن بلغتهم، كي نفهم القسم في القرآن، نجد أن هناك نوعان من القسم بحسب ما كان متعارف عليه قبل نزول القرآن:

النوع الأول: قسم الشعراء:

و هو ما يستخدمونه في قصائدهم من مثل: لعمرك، لعمري، لعمر أبيك، بربك، برمحي. بسيفي ..الخ، و بهذا القسم يبدو أن الشاعر كان يحاول إظهار علاقة من نوع ما ، بين طبيعة القسم ، و طبيعة الكلام الذي يتبع من أجل توكيد وجهة نظر الشاعر حيال المسألة المقسم عليها.

النوع الثاني: قسم الكهّان:

و هو الإتيان بأمور وظواهر طبيعية يقسم بها بغية إشهار التوكيد حول المقسم عليه ، من مثل أن يقسم بالليل أو النهار ..الخ . و لا يظهر أيضا نوعية العلاقة ما بين اختيار المقسم به و المقسم عليه ، بل تكون اعتباطا.

وبما أن طبيعة القسم في القرآن كان غامضا للمفسرين القدماء، فإنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء عقد مقارنة بين نمط متحدثي اللغة الذين

هم الشعراء في إنشاء القسم ، و بين الكيفية التي يأتي بها القسم في القرآن، و السبب البديهي لذلك عند أولئك المفسرين، أن الشعراء عندما يقسمون، فإنهم يفعلون ذلك بدافع رفع شرفهم ، و إعلاء كلمتهم أمام الخصوم .وهو ما لا يحتاجه الله أبدا. لذا فقد أسقط المفسرون من حسبانهم وجود علاقة منطقية ما ، بين المقسم به والمقسم عليه في القرآن، واكتفوا بالقول : إن القسم في القر آن هو بمثابة نوع من التوكيد البلاغي فقط للمقسم عليه، وإظهار عظمة المقسم به.

4 - نظرية فراهي في فهم القَسَم القرآ ني:

يفترض فراهي أن "الهدف من القسم ، هو تقديم محاورة منطقية استدلالية، و دليل إثبات منطقي، حيث يكون المقسم به بمثابة جملة من الأدلة المنطقية لإنشاء صلاحية المقسم عليه". إن نظرية فراهي هذه تعطي عمقا تاريخيا و لغويا للقسم القر آني من حيث إن النص القر آني قد تم إنزاله في بيئة تسيطر عليها عقلية الاعتماد على القسم والأيْمان لتوثيق العقود و تصديق المعاهدات. و التصديق كان في الغالب يتم بالمصافحة الشديدة باليد اليمين، و منه أطلق كلمة اليمين على القسم .أو غمس الأيمان في الماء، أو الدماء، بحضور شهود لإعطاء قوة للشهادة و الحضور المشتركين في القسم، حيث يكون المقسم به سواء كان دماء، أو أزلاما أو غيرها، بمثابة دليل قائم يشهد على حقيقة المقسم عليه ،من أفعال أو اتفاقيات ..الخ.

من خلال هذه النظرية، يقدم لنا فراهي مسألتين في غاية الأهمية:

المسألة الأولى: تقديم طريقة نظامية و تطبيقية في فهم النص القر آني بعيدا عن الطرق التقليدية و التي تعتمد على النظرة الدينية أو اللاهوتية البحتة، حيث يبني فراهي نظريته على أسس لغوية و منطقية وتاريخية ، مدعيا أن فهم الظروف و البيئة الاجتماعية التي أحاطت بنزول النص شيء ضروري لفهم النص المقدس نفسه.

المسألة الثانية: هي أن المقسم به، لا تعدو أهميته عن كونه أداة منطقية لإظهار صلاحية المقسم عليه. و بهذا يكون القسم نوع من أنواع التعليل و الاستدلال المنطقي في القرآن، حيث لا يصبح الهدف من القسم مجرد التأكيد على عظمة المقسم به ،أو عليه، و إنما يصبح هدفه إظهار العلاقة ما بين المقسم به و المقسم عليه، حيث يكون المقسم عليه هو النهاية أو الغاية، و المقسم به هو الوسيلة لفهم صلاحية تلك الغاية.

5 - خلاصة نظرية فراهي في فهم القَسَم القرآ ني:

قدم لنا حميد الدين فراهي[1]،نظرية مرنة و منطقية لتفسير ظاهرة القسم في القرآن الكريم. ففي تلك النظرية، يكون الهدف من القسم إبراز علاقة جدلية ما بين المقسم به و المقسم عليه، و هذه النظرة تخالف ما هو سائد من أن القسم هدفه إبراز أهمية المقسم به ، و جذب الانتباه والتوكيد على المقسم عليه ، دون وجود علاقة واضحة ما بين الطرفين. وكما رأينا، فإن نظرية هذا الرجل تنجح نجاحا مبهرا في كثير من الأحيان،

[1] – وهو اسم غريب غير معروف! و لكنه نسبة لمكان ميلاده،

لكنها لا تعدو عن مجرد كونها حدس أو تخمين للمقصود في أحيان أخرى.
إن سيطرة النظرة التقليدية نحو النص القرآني، و بالتحديد تكرار ظاهرة القسم الإلهي في القرآن، لا تنبع من مقدار صحتها بقدر ما تنبع من كونها الوحيدة في الميدان ، و بسبب عدم وجود نظرية أخرى تنازعها أو تذهب أكثر عمقا في فهم النص. فإن الحكم على صحة نظرية فراهي من عدمه ليس مُهمّا بقدر أهمية تغيير النظرة السطحية تجاه النص القرآني.

6- أركان القسم في سورة الفجر

الركن الأول للقسم: المقسِم:

هو الله تعالى.

الركن الثاني للقسم: المقسم به :

خمسة أمور: الْفَجْر - وَلَيَالٍ عَشْرٍ - وَالشَّفْعِ - وَالْوَتْرِ - وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ.

الركن الثالث للقسم: المقسم عليه:

وهو جواب القسم: **(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)**.

إن أفضل تحديد للمراد من هذه الأقسام هو النظر في المقسم عليه، أو جواب القسم، وهو واضح وضوحا جليا ، وعلى الرغم من ذلك وجدنا فيه اختلافا عند المفسرين، يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره:

"واعلم أن في جواب القسم وجهين:

الأول: أن جواب القسم هو قوله: **(إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد)**، وما بين الموضعين معترض بينهما.

الثاني : قال صاحب «الكشاف» : المقسم عليه محذوف ، وهو "لنعذبن الكافرين" ، يدل عليه قوله تعالى : **(أَلَمْ تَرَ كيف فعل ربك)**... إلى قوله: **(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)**، وهذا أولى من الوجه الأول ، لأنه لما لم يتعين المقسم عليه، ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك." اهـ

وكما نرى، فإن الإمام الفخر الرازي يرجح أن يكون المقسم عليه محذوفا ، ويقدره كما قدره الإمام الزمخشري وغيره، والقول بمحذوف في كتاب الله عز وجل، قول لا دليل عليه ولا برهان ، وهو تخرص في إضافة كلمات ومعان إلى كتاب الله العزيز. إذا ، فجواب القسم هو قوله تعالى : **(إن ربك لبالمرصاد)**. فالله تعالى يقسم بأشياء على أنه لبالمرصاد، ويأتي سبحانه بين القسم والجواب بعدة آيات تتحدث عن الإهلاك وصب العذاب،

الركن الرابع للقسم: الغاية من القسم به.

بما أن الله تعالى يقسم أنه لبالمرصاد ، ويقدم الأدلة التاريخية الهائلة على ذلك، فهناك حتما علاقة بين هذه المقسمات الخمس، وبين المقسم عليه؛ لبالمرصاد، فما هي هذه العلاقة في هذه المقسمات التي تحتاج إلى إعمال ذهن في استخراج العلاقة، والصورة البديعة الموجودة فيها؟

في هذه المقسمات ثمة : 1: فجر، و2: ليال عشر ، و3: والشفع 4: والوتر ، و5: وليل يسر ، ويفترض أن تكون هذه الأشياء دليل على أن الله

لبالمرصاد، وأنه غير غافل عن العباد . فكيف هذا؟ وما هو هذا العامل المشترك؟ وما هي هذه الصورة الموجودة في الآيات؟

نبدأ أولا بتحديد مدلول كل كلمة، ونقدم بعد ذلك هذه الصورة:

*إن اكتشاف الرابط في سورة الفجر، يؤدي لا محالة إلى تحديد معان ي الآيات الكريمات الواردة في أول السورة في القسم.

*لذا نقدم الرابط أو المنظور العام أو المقصد للسورة، ثم نبدأ في تناولها. وهذا الرابط هو الذي يصحح لنا تأويلات المفسرين، ويرشدنا إلى المعنى الصحيح لكل كلمة وكل آية، وهذا الرابط هو قوله تعالى: " **إن ربك لبالمرصاد**"، فبهذا الرابط نفهم المقصود بكل قسم أقسم الله به في هذه السورة، ولا نكتفي بالرضا بكون المقسم به عظيما، ونتيه في البحث عن هذه العظمة.

7 - الحكمة من جعل معترض بين المقسم به وجواب القسم.

يفهم بداهة أن هذه الآيات التي جاءت بعد المقسم به، من فجر وغيره، هي تصديق للمقسم عليه الذي كون الرب سبحانه بالمرصاد، وهذا هو العجيب في هذه السورة ، فمن المألوف والمعروف ، أن الإنسان عندما يقسم على شيء ، فإنه يقسم بكذا على كذا ، ثم يبدأ بعد ذلك في تقديم الأدلة على ما يقول ، حتى يزيل الشك الذي يراود الإنسان بشأن المقسم عليه، أما هنا ، فنجد أن الله تعالى أقسم بمقسمات عدة ، ثم يقول بعد

ذلك للإنسان دافعا إياه للتفكر فيها : **(هل في ذلك قسم لذي حجر)**؟، وقبل أن يأتي سبحانه بجواب القسم، يُذكّره بفعل الله عز وجل مع قوم عاد وثمود، ومع فرعون، فإذا أتى الإنسان إلى جواب القسم ، (إن ربك لبالمرصاد)، سلم حتما به ، وهو أن الله تعالى لبالمرصاد ، فلقد قدم له مقدما، الأدلة على الدعوى، فيُرفع الاعتراض أو الشك قبل وقوعه!

ثانيا: القَسَم في سورة الفجر

﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾[1].

أ - مدلول كلمة الفجر

1 - مدلول كلمة الفجر عند المفسرين

اختلف المفسرون في مدلول كلمة الفجر، فقالوا:

- **وقت الفجر**: وهو : انْفِجَارُ الظُّلْمَةِ عَنِ النَّهَارِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ. قاله علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس، ﷺ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ومجاهد، وعكرمة ، والسدي رحمهم الله .

- **صلاة الفجر**. التي تفعل عنده، كما قاله عكرمة .

– **النهار كله:** وهو رواية عن ابن عباس ﷺ. وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْفَجْرِ لِأَنَّهُ أَوَّلُهُ.

واختلفوا كذلك هل هو فجر عام، أم فجر يوم معين.

---

[1] - [سورة الفجر آية 1]

- **يوم النحر** : رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: وَالْفَجْرِ: يُرِيدُ صَبِيحَةَ يَوْمِ النَّحْرِ، وهو عن مسروق كذلك، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالي العشر .

- **يوم المحرم** : قَالَهُ ابْنُ مُحَيْصِنٍ عَنْ عَطِيَّةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ : يَعْنِي الْفَجْرَ يَوْمَ الْمُحَرَّمِ. وَمِثْلَهُ قَالَ قَتَادَةُ. قَالَ: هُوَ فَجْرُ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ المحرم، منه تنفجر السنة. كما نقله القرطبي.

2 – مدلول كلمة الفجر في اللغة

والحقيقة أن الفجر معروف ، وهو وقت ذهاب الليل والظلام ، ودخول الضوء والنهار ، والفجر كما يبدو من بنائه يدل على الانفجار! "الانفجار شق الشيء شقا واسعا والخروج منه، قال تعالى: (**وفجرنا الأرض عيونا)**[1]، قال تعالى:(**والفجر وليال عشر)**[2]، لأنه شق الليل شقا واسعا، والفجور: شق ستر الديانة، قال تعالى[3]: (**أولئك هم الكفرة الفجرة)**[4]،

---

[1] – القمر 12.

[2] – الفجر 1-2.

[3] – عبس 42.

[4] - والبجس والانبجاس: شق الشيء شقا ضيقا والخروج منه،الخسف: شق الشيء شقا واسعا والدخول فيه حتى الموت(فخسفنا به وبداره الأرض) القصص 81 (موسوعة الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم، الدكتور أحمد عبيد الكبيسي، المجلد 9، دار المعرفة، بيروت، لبنان، فجر، ص 272.

وجاء في المقاييس: "الفاء والجيم والراء ، أصلٌ واحدٌ، وهو : "**التفتح في الشَّيء**". من ذلك الفَجْر: انفِجار الظُّلمة عن الصُّبح. ومنه: انفجَرَ الماء انفجاراً: تفتَّحَ. والفُجْرَة موضع تفتُّح الماء. ثمَّ كثُر هذا حتَّى صار الانبعاثُ والتفتُّح في المعاصي فُجوراً. " اه.،. فإذا نحن نظرنا في القرآن الكريم وجدنا أنه يأتي بهذا المعنى، فهو إما:

- **انفجار ماء:** قال تعالى:(**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ ، وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)[1].

- **انفجار الظلمة:** واستعملت العربية الفجر مع هذا المدلول ، لأن في هذا الوقت تنفجر الظلمة عن الصبح كما قال ابن فارس.

ولا دليل في الآية على أنه فجر مخصوص ، أو صلاة الفجر ، فيحمل على الفجر، الذي هو الوقت الذي ينشق فيه الضوء، وينفجر النور، وقد أقسم ربنا به، لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وما يترتب على ذلك من المنافع ، كانتشار الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق . و سياق هذه السورة ، سياق دليل، يبدأها الله بالقسم، بالفجر المعروف الذي نعيشه ونحياه، ولا نعلمه فقط ، ونعلم مميزاته، وإشراق النفس التي تشرق في صدر الإنسان وقلبه في بزوغ الفجر، قبل أن تشرق الشمس على دنيا الناس، فيتفاءل الإنسان وقت الفجر.

---

1 - [البقرة : 74]

و مقصد سورة الفجر الذي هو " الحياة الجديدة الكاشفة للحقائق"، هو من أهم مقاصد القرآن المكي. وسبب اختيار الله عز وجل للفجر وهو زمن الإهلاك في القَسَم ، للدلالة على عظمته سبحانه وتعالى وانتقامه وجبروته، والإنسان بطبعه ينسى، والنسيان هو الذي دفع آدم عليه السلام إلى نسيان عهده وخور عزمه، قال تعالى في سورة طه: **(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)**[1]، فلما نسي آدم ؛ خارت عزيمته، وأكل من الشجرة ، ولسنا إلا ذرية من ولده ، يصيبنا مثل ما أصابه. فالنسيان آفة بني آدم ، ولذلك أنزل الله لهم القرآن ليذكرهم بحقيقة وجودهم ، قال تعالى: **(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)**[2]. ومن وسائل التذكير أيضا ربط المعاني بأحداث متعاقبة على ابن آدم، لتعود له الفكرة كلما مر عليه الحدث ، ومن هذا ما نحن بصدد الحديث عنه، إذ أن الفجر أمر يتكرر كل يوم على ابن آدم، لا يملك إنسان أن يختفي عنه، لهذا ربط الله بين الفجر المتكرر كل يوم ، وبين قدرته وعظمته وجبروته. فالفجر لدى المتدبر ليس ضوءا طالعا، ولا بداية يوم جديد فحسب، بل هو تذكير دائم بعظمة الله وقدرته وجبروته، وتذكير بانجلاء الليل، مهما طال، وانكشاف الفتنة والابتلاء، قال تعالى في سورة هود : **(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)**[3]، فكل صباح

---

[1] - [طه: 115].

[2] - [ص: 29].

[3] - [هود: 81]

يذكر الإنسان الذي ينسى بقرب انكشاف الحقائق ، وفي هذا من التثبيت وشرح الصدر ما لا يخفى على عاقل. فكلما رأيت الصبح قد تنفس ، والصبح قد أقبل، والضوء قد انفجر، تذكر أن الحقائق لا بد لها أن تظهر مهما طال الزمن، ومهما مر على تلك الحقائق من زور يغطيها، ومهما كتبنا في هذا لن نصف حجم تأثير مثل هذا على الإنسان، تثبيتا وسكينة وطمأنينة.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾[1].

ب - مدلول الليالي العشر في سورة الفجر

1 - مدلول الليالي العشر عند المفسرين

اختلف المفسرون كذلك في المراد من اللياليالعشر، فقالوا:

- **عشر ذو الحجة:** قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَالْكَلْبِيُّ فِي قَوْلِهِ: وَلَيالٍ عَشْرٍ : هُوَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ، كما قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وَرَوَى أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ،أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَالْفَجْرِ. وَلَيالٍ عَشْرٍ - قَالَ: [عَشْرُ الْأَضْحَى]،فَهِيَ لَيَالٍ عَشْرٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، لِأَنَّ لَيْلَةَ يَوْمِ النَّحْرِ دَاخِلَةٌ فِيهِ، إِذْ قَدْ خَصَّهَا اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَهَا مَوْقِفًا لِمَنْ لَمْ يُدْرِكِ الْوُقُوفَ يَوْمَ عَرَفَةَ. وَإِنَّمَا نُكِّرَتْ وَلَمْ تُعَرَّفْ

---

[1] - [سورة الفجر آية 2]

لِفَضِيلَتِهَا عَلَى غَيْرِهَا، فَلَوْ عُرِّفَتْ لَمْ تسْتَقل بِمَعْنَى الْفَضِيلَةِ الَّذِي فِي التَّنْكِيرِ، فَنُكِّرَتْ مِنْ بَيْنِ مَا أَقْسَمَ بِهِ، لِلْفَضِيلَةِ الَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهَا.

- **العشر الأول من المحرم** : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄، وَيَمَانٌ وَالطَّبَرِيُّ: هِيَ الْعَشْرُ الْأُوَلُ مِنَ الْمُحَرَّمِ، الَّتِي عَاشِرُهَا يَوْمُ عَاشُورَاءَ.قال الشيخ ناصر بن حمد الفهد حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد.

- **العشر الأواخر من رمضان** : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄: هِيَ الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ، وَقَالَهُ الضَّحَّاكُ[1].

- **العشر الأول من رمضان** : روى أبو كدينة، عن قابوس بن أبي ظبيان ، عن أبيه، عن ابن عباس: (**وليال عشر**) قال: هو العشر الأول من رمضان ونذكّر أن هذه السورة هي العاشرة في النزول ، أي من أوائل السور المكية، والناظر في أقوال السادة المفسرين في هذا الشأن يجد عجبا ، فما علاقة ليالي رمضان الأخيرة ، والذي لم يفرض صيامه حتى السنة الثانية من الهجرة، بالليالي العشر المقسم بها في هذه السورة المكية؟، أو بعشر ذي الحجة، فهل كان الرسول ﷺ أو المسلمون قد عرفوا أن الله سيبقي نظام الحج كما هو ولن يغيره؟ وكذلك نفس الوضع مع ليالي المحرم ، أو أي ليال ذكروها؟! وبغض النظر عن مكية السورة ومدنيتها ، وترتيب نزولها ، فما علاقة هذه الآيات بالمقسم عليه ، وهو " **إن ربك لبالمرصاد** "، وما علاقتها بهلاك عاد وثمود وفرعون؟! بداهة ليس هناك أي علاقة ، إذا، يجب علينا

---

[1] - ابن القيم رحمه الله في (بدائع الفوائد) 3/ 162.

أن نبحث عن ليال لها تعلق بهؤلاء الأقوام أو ببعضهم ، من هذه الليالي الموافقة لهذه المعطيات:

- **ليالي موسى عليه السلام العشر:** قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﭬ . وَقَالَ مَسْرُوقٌ هِيَ الْعَشْرُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي قِصَّةِ موسى عليه السلام ، وَهِيَ أَفْضَلُ أَيَّامِ السَّنَةِ. والتي قال تعالى فيها: **(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)**[1]، فموسى عليه السلام، له ذكر ضمني في السورة من خلال ذكر فرعون ، إلا أن هذه الآيات تتحدث عن فرعون وآله وجيشه، ولم تذكر موسى عليه السلام، لهذا لا ندخله نحن، لهذا ليست هي المقصودة في القسم، كما أنه لا علاقة لها أيضا بالمقسم عليه. الذي هو" **إن ربك لبالمرصاد**".

2 - الليالي العشر التي لها ارتباط بالأقوام الواردة في السورة

عشر ليالي عاد وثمود: وباستقرائنا للقرآن، نجد ما جاء مجملا في سورة الفجر من عذاب لاحق بعاد وثمود، مفصلا في سورة هود والحاقة، إذ يقول سبحانه في سورة الحاقة : **(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)**[2]. فالعذاب نزل بعاد في سبع ليال، وإذا نظرنا في

---

[1] – [الأعراف : 142]"

[2] – [الحاقة : 6,7]

حال ثمود وجدنا عذابهم مفصلا في سورة هود، إذ قال سبحانه وتعالى : **(فَعَقَرُوهَا، فَقَالَ: تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)**[1]. فإذا نحن جمعنا ليال يهذه الأيام الثلاثة الذي انتظروا فيها العذاب ، وكانت هذه لياليعذاب معنوي ، وكما يقال في المثل : "وقوع البلاء ولا انتظاره" ، فهم ظلوا في ترقب ثلاثة أيام ، وثلاثة ليال، ثم نزل بهم العذاب، فأهلكوا بالصيحة الطاغية مباشرة! وكما روي عن ابن عباس ﵄ قال: (إنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة ، فقد رغبهم في الإيمان، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب، فقالوا : وما علامة ذلك؟ فقال : تصير وجوهكم في اليوم الأول مصفرة، وفي الثاني محمرة، وفي الثالث مسودة، ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع، فلما رأوا وجوههم قد اسودت ، أيقنوا بالعذاب، فاحتاطوا واستعدوا للعذاب ، فصبحهم اليوم الرابع ، وهي الصيحة والصاعقة والعذاب). فلليالي العشر ، هي ليالي العذاب عند عاد ، وليالي انتظار العذاب وترقبه عند ثمود ، – والتي هي عذاب أيضا- وهكذا نكون قد أتينا بليال عشر، لها علاقة بالمقسم عليه ، وهذه الآيات تحتاج إلى إعمال ذهن كما قال الله تعالى: **(هل في ذلك قسم لذي حجر)** .

---

1 – [هود :65, 66]

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾[1].

ج - مدلول كلمة الشفع

1 - أقوال المفسرين في معنى الشفع

اختلف المفسرون في المراد من الشفع والوتر اختلافا شنيعا لعدم توصلهم للرابط في السورة، حتى إننا وجدنا الإمام الفخر الرازي يقول: "اضطرب المفسرون في تفسير الشفع والوتر وأكثروا فيه ......" وذكروا في تفسيرهم! للشفع والوتر تفسيرات عديدة أوصلوها إلى تسعة عشر[2]:

---

[1] - [سورة الفجر آية 3]

[2] - [1- الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة. 2 - الشفع هو يومان بعد يوم النحر ، الوتر هو اليوم الثالث. 3 - الوتر آدم شفع بزوجته ، وفي رواية أخرى الشفع آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى. 4 - الوتر ما كان وتراً من الصلوات كالمغرب، والشفع ما كان شفعاً منها. 5 - الشفع هو الخلق كله، لقوله تعالى: (**وَمِن كُلّ شَيء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**) ، [الذاريات : 49]. وقوله : (**وخلقناكم أزواجا**) ، [النبأ : 8]. والوتر هو الله تعالى. . 6 - الشفع درجات الجنة وهي ثمانية ، والوتر دركات النار وهي سبعة. 7 - الشفع صفات الخلق كالعلم والجهل والقدرة والعجز والإرادة والكراهية والحياة والموت ، أما الوتر فهو صفة الحق وجود بلا عدم، حياة بلا موت، علم بلا جهل، قدرة بلا عجز، عز بلا ذل. 8 - المراد بالشفع والوتر ، نفس العدد فكأنه أقسم بالحساب الذي لا بد للخلق منه، وهو بمنزلة الكتاب والبيان الذي منّ الله به على العباد. 9 - قال مقاتل الشفع هو الأيام والليالي، والوتر هو اليوم الذي لا ليل بعده، وهو يوم القيامة. 10 - الشفع كل نبي له اسمان، مثل: محمد وأحمد، والمسيح وعيسى، ويونس وذي النون، والوتر كل نبي له اسم واحد، مثل :آدم، ونوح، وإبراهيم. 11 - الشفع آدم وحواء، والوتر مريم. 12 - الشفع العيون

من هنا يظهر لنا أهمية معرفة مقصد السورة، إذ في غيابها انكشف مقدار حيرة المفسرين في تحديد مدلول الشفع والوتر ، حتى إن الإمام الفخر الرازي في نهاية المطاف ، لم يستطع أن يحدد هو نفسه معنى لها، ولهذا نجده قد قبل قول من يحملها على الكل! وكل هذا راجع إلى النظرة الاجتزائية للسورة، ولو ركزوا على المقصد، فإنهم بذلك سيقرؤون السورة كلها على أنها وحدة واحدة ، ولما احتاروا هذه الحيرة ، وترك عامتهم قول الرب العليم ، وأخذوا بأقوال فلان وعلان من الناس ، ومضوا على هذا النهج إلى آخر السورة، قطعوها آيات منفصلات .

وإذا نحن نظرنا في السورة، وفي اللغة العربية التي نزل بها القرآن، استطعنا أن نرجح المدلول المراد من الشفع والوتر في الآية ، ونبدأ أولا بالبحث في معنى الشفع في المعاجم.

2 - معنى الشفع في اللغة

الاثنتا عشرة ، التي فجرها الله تعالى لموسى عليه السلام، والوتر الآيات التسع التي أوتي موسى في قوله تعالى : **(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيِّنَاتٍ)** . [الإسراء : 101]. **13** - الشفع أيام عاد، والوتر لياليهم، لقوله تعالى : **(سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً)**. [الحاقة : 7]. **14** - الشفع البروج الاثنا عشر، لقوله تعالى : **(جَعَلَ فِي السماء بُرُوجاً)** ، [الفرقان : 61]. والوتر الكواكب السبعة. **15** - الشفع، الشهر الذي يتم ثلاثين يوماً، والوتر الشهر الذي يتم تسعة وعشرين يوماً. **16** - الشفع، الأعضاء، والوتر القلب، قال تعالى : **(مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)**. [الأحزاب : 4]. **17** - الشفع الشفتان، والوتر اللسان، قال تعالى: **(وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ)**. [البلد : 9]. **18** - الشفع السجدتان، والوتر الركوع. **19** - الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية، والوتر أبواب النار لأنها سبعة].

- **لسان العرب لابن منظور**[1]: يقول ابن منظور في اللسان: "**الشفع:** خلاف الوَتْر، وهو الزوج. تقول: كانَ وَتْراً فَشَفَعْتُه شَفْعاً. وشَفَعَ الوَتْرَ من العَدَدِ شَفْعاً: صيَّره زَوْجاً؛ والشَّفِيعُ من الأَعْداد: ما كان زوجاً، تقول: كان وَتْراً فشَفَعْتُه بآخر، وناقة شافِعٌ: في بطنها ولد يَتْبَعُها أو يَتْبَعُها ولد يَشْفَعها" اهـ.

- **معجم مقاييس اللغة، لابن فارس**[2]: وإذا نحن نظرنا في المقاييس، وجدنا ابن فارس يقول:"الشين والفاء والعين ، أصلٌ صحيحٌ ، يدلُّ على مقارنة الشيئين. من ذلك الشَّفْع خلاف الوَتْر. تقول: كان فرداً فشفَعْتُه."اهـ

3- الفرق بين الشفع والزوج

هناك فرق بين الشفع والزوج ، فالزوج هو واحد الإثنين من الأجناس المختلفة! فالرجل زوج عندما يكون هناك امرأة!.

د- مدلول كلمة الوتر

1- معنى الوتر في اللغة

[1] - لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة - 1414 هـ ج 8، ص 183.

[2] – معجم مقاييس اللغة ، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ - 1979م. ج3، ص 201.

لسان العرب لابن منظور: إذا نحن نظرنا في اللسان في معنى الوتر، وجدنا أن ابن منظور يقول:

- "الوِتْرُ والوَتْرُ: الفَرْدُ، أَو ما لم يَتَشَفَّعْ من العَدَدِ.

- ووَتَرْتُ الرجلَ: أَفزعتُه؛ عن الفراء.

- ووَترَهُ حَقَّه وماله: نَقَصَه إِياه. وفي القرآن: **(ولن يَتِرَكُمْ أَعمالكم)**. أي لن يَنْقُصَكُمْ من ثوابكم شيئاً. وقال الجوهري: أَي لن يَنْتَقِصَكم في أَعمالكم، وفي حديث النبي، ﷺ : **(من فاتته صلاة العصر فكأَنما وتِر أَهله وماله)**؛ أَي نقص أَهله وماله ، وبقي فرداً؛ يقال: وتَرْتُه إِذا نَقَصْتَه ، فكأَنك جعلته وتراً بعد أَن كان كثيراً . وتقول: قد وَتَرْتُه حَقَّه إِذا نَقَصْتَه، وأَحد القولين قريب من الآخر. وفي الحديث: **(اعمل من وراء البحر، فإِن الله لن يَتِرَكَ من عملك شيئاً)**، أَي لن يَنْقُصَك.

- وقيل: هو من الوَتْرِ، الجناية التي يجنيها الرجل على غيره، من قتل أَو نهب أَو سبي، فشبه ما يلحق من فاتته صلاة العصر بمن قُتِلَ حَمِيمُهُ أَو سُلِبَ أَهله وماله.

- والتَّواتُرُ: التتابُعُ، وقيل: هو تتابع الأَشياء ، وبينها فَجَواتٌ وفَتَراتٌ. وقال اللحياني: تواتَرَت الإِبل والقَطا، وكلُّ شيء إِذا جاء بعضه في إِثر بعض، ولم تجئ مُصْطَفَّةً ، وجاءت الخيل تَتْرى ، إِذا جاءت متقطعة؛ وكذلك الأَنبياء عليهم السلام: بين كل نبيين دهر طويل. وقال الجوهري: تَتْرى فيها لغتان: تنوّن ولا تنوّن ، مثل: عَلْقى، فمن ترك صرفها في المعرفة جعل أَلفها أَلف تأْنيث، وهو أَجود، وأَصلها وَتْرى من الوِتْرِ وهو الفرد، وتَتْرى أَي واحداً بعد

واحد، ومن نونها جعلها ملحقة. وقال أَبو هريرة ﷺ : **"لا بأْس بقضاء رمضان تَتْرى أَي متقطعاً"** اهـ

2 - نتيجة البحث في معنى الشفع والوتر

كما رأينا من خلال اللسان والمقاييس ، أن الشفع هو خلاف الوتر! والوتر كما هو النقص ، وهو خلاف الشفع! والشفع كما ذكر ابن فارس مقارنة الشيئين، وهو لا يقصد المقارنة بمفهومها المعاصر ، وإنما يقصد ضم الشيء إلى الشيء ، وبهذا نكون قد قرناه به! فالإنسان يكون فردا بنفسه ، فإذا ضم إليه غيره فقد شفع به!

ومما سبق، يتبين لنا أن الوتر هو عملية الإفراد أو الإنقاص، وهناك فارق بين الوتر والفرد ، فإذا كان الإنسان سليما غانما معافى، لا يقال له وتر، أما إذا كان معه أقارب أو أصحاب فخلّوه فيصير وترا ، لأنه كان مشفوعا ومحميا فوُتر.

و المراد من الشفع هو الضم والإلحاق ، والوتر هو الإفراد والإنقاص ، فما المراد منهما في هذا السياق؟ لقد ذكر السادة المفسرون معان عدة للشفع والوتر، ولكنهم عقّدوا المسألة وصعبوها على أنفسهم وعلينا كذلك.

3 - المقصود بالشفع والوتر في سورة الفجر

المراد من الشفع والوتر في سورة الفجر، هو مسألة أو عملية الشفع والوتر، فالنص القرآني لم يخصص أي مدلول من المداليل التي ذكرها المفسرون احتمالا ، أما نحن فنأخذ مدلول الكلمة نفسها وهو الإلحاق

والضم، والإفراد والنقص! فإذا نحن أخذنا بمعنى الكلمتين! وجدنا أن السياق قد انتظم، فالله عز وجل يقسم بعملية العطاء والمنع، الذي يبتلي بها كل الناس ، وكل الأقوام ، وفي كل الأزمنة ، وغالبا ما يرسب الإنسان في الامتحان، - وتذكر سورة الفجر نموذجا مباشرا لذلك في سياقها ، ونماذج غير مباشرة- ، فعندما يعطي الله عز وجل الإنسان ، يأمره بالحمد ، ولكن غالبا ما ينسى الإنسان ويطغى ، - ولابد من الانتباه إلى النسيان كذلك هنا ، وسنعود إليه لاحقا- وعندما يمنع الله عز وجل، فإنه يمنع لكي يتضرع الإنسان إليه ويسأله، فكله ابتلاء بالنقص أو الزيادة بالوتر والشفع، فالله يعطي من يشاء كما يشاء ، بحكمة وقدر ، قال تعالى: **(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ،إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**[1] . وقد تبتلى الأمم بالشفع أو الوتر ، فينسون، وعندما ينسون ، يفتح عليهم حتى يهلكوا أنفسهم بأنفسهم، قال تعالى : **(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)**[2].

فالله تعالى يقسم في سورة الفجر بالشفع الذي أعطاه لعاد وثمود وآل فرعون، فطغوا وتجبروا ، واعتدّوا بأنفسهم وبما عندهم، وظنوا أنه حامٍ لهم ومانع، فلم يمنعهم ذلك من أمر الله ، لأن أمر الله إذا جاء لا راد له. ويذكر القرآن أن هذا الابتلاء حدث مع فرعون وآله صراحة فيقول في

---

[1] – [الشورى: 12]

[2] – [الأنعام: 44]

سورة الأعراف : **(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ، فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ، أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)**[1]. فحدث معهم عملية الإيتار،" من الوتر"، فلم يتذكروا، - ونركز على التذكر- ، وعندما كانوا يشفعون، **(جاءتهم الحسنة)**- كانوا يردونها إلى أنفسهم وينسبونها لهم. فالمراد من الشفع والوتر هو عملية الشفع والوتر، العطاء والمنع، الزيادة والنقصان.

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾[2].

﴿وَالَّيْلِ﴾.

هـ - مدلول الليل

1 - تعريف الليل لغة

الليل واحد بمعنى جمع، و واحدته ليلة، مثل تمرة وتمر ، وقد جمع على ليال، فزادوا فيه الياء على غير قياس، وليل أليل ، شديد الظلمة ، والليل عقيب النهار، ومبدؤه من غروب الشمس.[3]

---

[1] - [الأعراف : 131 - 130]

[2] - [سورة الفجر آية 4]

[3] - لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت 711 هـ)، دار صادر – بيروت ، الطبعة الحادية عشرة ، 1/ 630 ، 11/ 608 ، ومختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن

2 - تعريف الليل اصطلاحا

جاء تعريف الليل اصطلاحا مقارباً من تعريفه في اللغة ، حيث جاء في الاصطلاح : الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر[1] .

ويعتمد طول الليل على كل من العرض الجغرافي مكان الرصد ، وفصول السنة. فعلى خط الاستواء، يستمر الليل 12 ساعة. أما في الأماكن الأخرى فيطول عن ذلك أو يقصر، حسب فصول السنة، ويبلغ 12 ساعة فقط عند الاعتدالين. وأطول ليل بالنسبة للعروض الشمالية ، يكون في وقت الانقلاب الشتوي، حوالي 21 ديسمبر، وأقصر ليل في الانقلاب الصيفي، حوالي 21 يونيو، والعكس للعروض الجنوبية.

3 - لفظة الليل ومشتقاته في القرآن

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم، يجد أن لفظة (الليل ، ليلا ، ليلها ، ليال ، ليالي) قد تكرر ذكرها بنحو (92) مرة ، موزعة توزيعا بمستوى يعجز العقل البشري عن وصفه، لذا سنحاول الوصول إلى معرفة بعض الحكم الإلهية التي تتجلى من اختلاف الليل والنهار، حيث خصّ الله تعالى (الليل) بأن يكون وقتاً للانقطاع والوقوف بين يدي الله، ففي كل تأمل وتدبر وتفكر في هذه الآيات يظهر أمرا جديدا وحكمة لم تكن ظاهرة من قبل.

عبد القادر الرازي (ت 726 هـ) ، لبنان – بيروت 1995 م ، 1/ 255 .

[1] - التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ)، دار الفكر المعاصر بيروت ، الطبعة الأولى ، 1/ 630 .

4 - لفظ الليل مقروناً بلفظ النهار

ورد لفظ الليل في القرآن (74) مرةً، وجاء مقروناً بلفظ النهار، وهذا هو الغالب في الخطاب القرآني.

5 - لفظ الليل قَسما

أقسم الله تعالى بالليل تارة أخرى حيث قال تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ** ﴾[1] ، وقد تكرر هذا في قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ** ﴾[3] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾[5] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى** ﴾[6] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى** ﴾[7] .

6 - اختيار الليل لإنقاذ المؤمنين المستضعفين من الطغاة

إن القرآن الكريم جعل الليل سببا ووسيلة لنجاة عباده المؤمنين من سطوة الطغاة الكافرين، فكان الليل من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو،

---

[1] - سورة المدثر آية 33.

[2] - سورة التكوير الآيتان 17 – 18.

[3] - سورة الانشقاق الآيتان 17 – 18.

[4] - سورة الفجر الآية 4.

[5] - سورة الشمس، الآية 4.

[6] - سورة الليل، الآية1.

[7] - سورة الضحى، الآية 2.

حيث أخبر القرآن بأن الله قد أمر نبيه لوطاً عليه السلام أن يخرج هو ومن آمن معه ليلاً بقوله : ﴿ **قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾[1]. قال ابن كثير رحمه الله : (أن يسري بأهله من آخر الليل) [2]. وقد تكرر الأمر مع موسى عليه السلام ، فخلصه الله من سطوة فرعون وجنوده عندما أمره بالخروج ليلا حيث قال تعالى : ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ** ﴾[3] ، كما إن المصطفى ﷺ جعل خروجه من بيته في حادثة الهجرة ليلاً، لتكون تلك اللحظات والدقائق الحرجة شاهدا على اختيار الخالق لها بأن تكون أداة لنصر المؤمنين، فالظلام يستر غيره، لذا سماه الله تعالى (لباسا) ، قال سيد قطب رحمه الله :(الليل يستر الأشياء والأحياء، فتبدو هذه الدنيا وكأنها تلبس الليل وتتسع بظلامه، فهو لباس)[4].

﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾.

و- مدلول كلمة يسري

1- يسري عند القراء

[1] - سورة هود، الآية 81

[2] - تفسير القرآن العظيم ، 454/2.

[3] - سورة الدخان.

[4] - في ظلال القرآن، 2569/5.

قرأ الجمهور (يسر) بحذف الياء وصلا و وقفا، اكتفاء عنها بالكسرة تخفيفا. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء عند الوصل، وبحذفها عند الوقف.

2 - والليل إذا يسري عند المفسرين

ومعنى يسري، أي يَمضِي ويَذهَبُ، أو يُسارُ فيه. ومادام لم يبق أمامنا من المقسمات بها إلا " **والليل إذا يسر** " فإنها واضحة المعنى والمبنى، ورغم ذلك وجدنا بعض المفسرين طمس وا هذا المعنى فقال وا: إن المراد ليس يسر، ولكن يُسرى فيه! فإذا نحن نظرنا في تفسير مفاتيح الغيب ، وجدنا أن الإمام الفخر الرازي ذكر هذا القول احتمالا، فقال:
"**المسألة الأولى** : إِذَا يَسْرِ ، إذا يمضي، كما قال تعالى : **(واليل إِذَا أَدْبَرَ)**[1]، وقوله تعالى: **(واليل إِذَا عَسْعَسَ)**[2]، وسراها ومضيها وانقضاؤها، أو يقال : سراها هو السير فيها ، وقال قتادة : إِذَا يَسْرِ أي إذا جاء وأقبل .
المسألة الثانية : أكثر المفسرين على أنه ليس المراد منه ليلة مخصوصة ، بل العموم، بدليل قوله تعالى: **(واليل إِذَا أَدْبَرَ)**، **(واليل إِذَا عَسْعَسَ)** وقال مقاتل : هي ليلة المزدلفة فقوله : **(إِذَا يَسْرِ)**، أي إذا يسار فيه ، كما يقال : ليل نائم لوقوع النوم فيه، وليل ساهر لوقوع السهر فيه، وهي ليلة يقع السري في أولها عند الدفع من عرفات إلى المزدلفة، وفي آخرها كما روي

---

1 - [المدثر : 33]
2 - [التكوير : 17]

أنه عليه الصلاة والسلام كان يقدم ضعفة أهله في هذه الليل، وإنما يجوز ذلك عند الشافعي بعد نصف الليل ." اهـ

وقد يستغرب الفرد من ذكر هذا الاحتمال البعيد وكثير من أمثاله في كتب التفسير التي تمتلئ بأقوال لا علاقة لها باللفظ ، ويتيه القارئ في تحديد المعنى المراد ، ثم نجد بعد ذلك من يتعصب لقول لا علاقة له باللفظة، أو يذكرون هذه الأقوال ويتعصبون لها لأنها صادرة عن فلان ، على الرغم من كونها مخالفة لمعنى اللفظة!

3 - يسري في اللغة

إذا نحن نظرنا على سبيل المثال في المقاييس ، وجدنا ابن فارس يقول: "..... والسُّرَى سير اللَّيل، يقال : سَرَيْت وأسريت. قال: والسَّرَاء: شجرٌ. وسَرَاة الشيء: ظَهْره. وَسَراة النَّهار: ارتفاعُهُ."اهـ

وسبب هذه الإشكالية عندهم، أن السرى هو السير بالليل، فما الذي يمنع أن ينسب نفس الفعل إلى الليل؟ أمّا هم فقالوا: الليل يُسرى فيه، ولا يَسر! وكيف يقول الله شيئا فيعدلونه!؟

4 - سريان الليل إشارة إلى سرعة انكشاف الحقائق

إن هذه الآية من سورة الفجر، آية جلية في وصف فعل طبيعي كوني، فالآية تتحدث عن مسير الليل وذهابه. ودلالة تقييد الليل بحالة السريان، أن الفجر هو وقت ظهور الضوء وانكشاف الحقائق، وأما الليل فهو وقت طمسها وتغطيتها، ففي تقييد الليل بالسريان، إشارة إلى سرعة انقضائه،

وأن الليل مهما طال، فطبيعته السريان، لهذا لابد أن يمضي وينتهي، وأن الحقائق مهما طمست وغيبت ، لا بد أن يأتي وقت تظهر فيه، سواء كان هذا في الدنيا بتسليط العذاب على الجبابرة والطغاة كما نزل بعاد وثمود وفرعون، أو في الآخرة يوم الدين، وفي هذا تثبيت وأي تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولمن بعدهم من حملة هذا الدين، في بحر من التهديد لخصومهم.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾[1].

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾. أي المذكورِ الذي أَقسَمْنَا به.

﴿ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾

ز- مدلول كلمة الحِجر

1 - معنى الحجر في اللغة

الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم): العقل، ويقولون: فلان ذو حِجر: إذا كان قاهرا لنفسه، ضابطا لها، مضيّقا عليها. ومناسبة قوله تعالى: **(لذي حجر)** ، أن أصل الحجر هو المنع ، والمقصود به هنا هو العقل ، وسمي العقل حجرا، لأنه يمنع صاحبه عما يُقبّح وتضر عواقبه، وذُكر هنا خاصة للإشارة إلى أن الانجرار وراء هذه التلبيسات والخدع ، إنما سببها ضعف

---

[1] - [سورة الفجر آية 5].

العقل، و جاء في المقاييس: " الحاء والجيم والراء أصل واحد مطَّرد، وهو المنْع والإحاطة على الشيء. فالحَجْر حَجْر الإنسان، وقد تُكسر حاؤه. ويقال حَجَر الحاكمُ على السَّفيه حَجْراً؛ وذلك منْعُه إيَّاه من التصرُّف في ماله.

والعَقْل يسمَّى حِجْراً ، لأنّه يمنع من إتيانِ ما لا ينبغي، كما سُمِّي عَقْلاً تشبيهاً بالعِقال. والحَجَر جماد معروف، والبابُ كلُّه محمولٌ عليه، ومأخوذ منه، لشدَّته وصلابته. والحاجرُ: ما يُمْسك الماءَ من مكانٍ منْهَبِط، وجمعه حُجْرانٌ. وحَجْرة القوم: ناحية دارهم ، وهي حِماهُم. والحُجْرة من الأبنية معروفة. وحجَّر القَمَرُ، إذا صارت حولَه دارةٌ.ومما يُشتقُّ من هذا قولهم: حَجَّرْتُ عينَ البعير، إذا وسمْتَ حولَها بميسمٍ مستدير. ومَحْجِر العَين: ما يدور بها، وهو الذي يظهر من النِّقاب. والحِجْر مَكَّة، هو المُدَار بالبيت. والحِجْر القرابة. والقياس فيها قياس الباب؛ لأنها ذِمامٌ وذِمارٌ يُحمَى ويُحفَظ." اهـ

وأن الوسيلة الطبيعية لإدراك الحقائق واكتشافها مهما غشاها زور وخداع، إنما هو العقل، فوجب العناية به. وكأن سورة الفجر، تخاطب كفار قريش خاصة، وكل من سار على نهجهم عامة ، قائلة لهم: أليس لكم عقول تبصرون بها الحقيقة؟ أليس لكم عقول تردكم عن غيكم؟ ألم تروا مصائر الأمم قبلكم؟ أليس فيما أصابهم عبرة وعظة لكم ، ونورا يكشف لكم الحقيقة؟

والمراد كذلك أن من كان ذا لبّ وعقل ، يفطن إلى أن في القسم بهذه المخلوقات المشتملة على باهر الحكمة، وعجيب الصنعة، الدالة على وحدانية صانعها- مقنعا أيّما مقنع، وكفاية أعظم كفاية. وجاء الكلام بصورة الاستفهام لتأكيد المقسم عليه وتقريره، كما تقول لمن يحاجّك في أمر، ثم تقيم له الحجة الناصعة التي تثبت ما تدّع يٍ هل فيما ذكرت لك كفاية؟، ومرادك أني قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها، فلست تستطيع جحد ما قلت بعد هذا.

ح - السر في استعمال الحِجْر بدل اللب أو العقل أو النهى

الحجر هو العقل ، ونتوقف مع كلمة الحِجر ، بحيث نجد أن في هذا الموضع الوحيد من القرآن أتت هذه الكلمة بهذا المعنى ، وبخلاف ذلك نجد الله عز وجل يقول: " **لأولي الألباب**"، "**لأولي النهى**" ، والمناسبة في استعمال هذه الكلمة هنا ، أن الناظر والمدقق في السورة يجد أن هذه الكلمة هي أنسب كلمة تستعمل في هذا السياق.

1 - عاد وعلاقتهم بالحَجَر:

قوم عاد التي كانت في اليمن، بنت من الأبنية العظيمة ما لا يقارن به ، حتى إن الله قال في حقهم: (**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**)[1]، وبداهة هذه الأبنية، كانت من الحجارة.

2 - ثمود وعلاقتهم بالحَجَر:

1 – [الشعراء : 128].

إذا نحن نظرنا بعد آيات قليلات سنجد أن الله تعالى يقول : " **وثمود الذين جابوا الصخر بالواد** "، فثمود سماهم القرآن في سورة أخرى " **أصحاب الحِجْر**"، فقال تعالى في سورة الحجر: **(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ)**[1]. وفي الأعرا ف **جابوا الصخر بالواد** ، فقال تعالى: **(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً، وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ، فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)**[2].

والحِجر واد بين الحجاز والشام ، كانوا يسكنونه، قال الراغب : يسمى ما أحيط به الحجارة ِحجراً ، وبه سم يِحِجر الكعبة ، وديار ثمود. فالحجر أساسا يدل على الإحاطة والمنع ، كما جاء في قوله تعالى: **(وَقَالُواْ: هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ ، وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَ أَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)**[3]، وكما قال سبحانه: **(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً)**[4]. ولكنه يطلق تخصيصا على ما أحيط بالحجارة ، فإذا نحن نظرنا في الآيات

1 – [الحجر : 80].
2 – [الأعراف : 74].
3 – [الأنعام : 138].
4 – [الفرقان : 53].

التاليات، وجدنا أن الحجارة كانت هي العامل المشترك لهذه الأقوام المذكورة، والتي اغتروا بها.

3 - فرعون وعلاقته بالحَجَر:

والحضارة المصرية القديمة اشتهرت أيما اشتهار باستعمال الأحجار ، وفرعون موسى كان من ملوك مصر القدامى – الموصومين زورا وبهتانا بالفراعنة.

فالعامل المشترك بين الأقوام الثلاثة : عاد، وثمود، وفرعون، هو القوة الشديدة، واستعمال الحجارة ، لهذا ناسب ذلك استعمال كلمة الحِجر بدل الألباب، أو النُّهى، أو العقل، قال تعالى : **(هل في ذلك قسم لذي حجر)**، لإنسان لديه عقل قوي، يمنعه من الهلاك والضياع، حتى لا يكون مثل هؤلاء الأقوام ، الذين لم تمنعهم حجارتهم من الهلاك! ومن الممكن القول: إن في الآية كذلك إشارة إلى المتكبرين والطاغين ، فيمكن أن تفهم ، هل في ذلك السابق ، قسم لمن يحتمي بقوته ، وبمن يمنعه ، فيحسب أن هذا حجر له ومانع ، كما فعل عاد من قبل فقالوا : **(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)**[1] ، فينبهه الله عز وجل أن تبدل الأزمنة ومرورها ، والنقصان والزيادة، أكثر من كافية ، لإهلاك أي طاغ متجبر محتم بغيره،فدورة الزمان دائرة، وهي لا تبقي أحدا!

---

1 – [فصلت : 15].

فهذه الأقسام الواردة في سورة الفجر، إشارات جليلة عجيبة، تزلزل وتؤثر في كل إنسان ذي حجر! فإذا نحن انتقلنا إلى باقي الآيات ، فسيكون التناول يسيرا سريعا، لأن الرابط العام للسورة قد ظهر للقارئ.

ثالثا: الر ابط بين المقسم به، والمقسم عليه في سورة الفجر

بعد هذه الرحلة الطويلة إلى حد ما في تحديد مداليل هذه الآيات نسأل: ما هو الرابط الذي يربط هذه الآيات بالمقسم عليه **"إن ربك لبالمرصاد"**؟

الرابط هو أن الله تعالى يقدم صورة بديعة على رصده لخلقه وتنظيمه لهم وحسابهم وعقابهم:

1 – **الفجر:** فيقسم بالفجر الذي يأتي فيزيح الليل ، فكما أزاح الفجر الليل، يزيح الله عز وجل قوى الشرك والظلم من أمام النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأمام ورثته إلى يوم الدين، ومن وجه الدعوة الجديدة.

2 – **الليالي العشر:** ويقسم بالليالي العشر التي كان لها دور في إفناء أقوى قوتين وُجدا على وجه الأرض ؛ عاد وثمود، فإذا كان الله قد أهلك عادا وثمودا، فهو كذلك قادر على إهلاك المعاندين للرسول ﷺ. ولورثته إلى يوم الدين.

3 – **الشفع والوتر:** ويقسم سبحانه كذلك بعملية الزيادة والإنقاص ، والتي بها وفيها يهلك الناس.

4 – **الليل إذا يسر:** ثم يختم بالقسم بسير الليل ، وفيه إشارة إلى حتمية وجود الليل، فالليل حتما لا بد أن يأتي، ولكن الليل لا يأتي فيبقى، فهذا ما لا يكون، بل الليل يأتي ويزول، لأنه يسر، فهو في دورة، وحتما بعد أن يسر

الليل، لا بد أن يأتي الفجر ، وبعد الفجر يكون حتما النهار ، وعلو الدين الجديد!

فالله يبشر نبيه أن دينه في علو وظهور ، فلقد أتى الفجر ، وإذا أتى الفج ر، فحتما لا بد أن ينقضي الل يل ويذهب ، وبعد الفجر يكون النهار ، وهو ما كان فعلا، فذهب الليل وأتى فجر الإسلام وضُحاه وظهوره! قال تعالى: **(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)** [1]. كما أنه بعد الانكسار التاريخي ومجيء الملك العاض الذي يعض على الأمة بالوراثة، والجبري الذي يغيب فيه الحكم بما أنزل الله، ستكون خلافة على منهاج النبوة، فعن حُذَيْفَة بن اليمان ﵁ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا [2]، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً [3]، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ،**

---

[1] - سورة النصر، الآيات 1 – 3.

[2] - أَيْ: يُصِيبُ الرَّعِيَّةَ فيه عَسْفٌ وظُلْمٌ ، كأنَّهُمْ يُعَضُّونَ فَيهِ عَضًّا. النهاية في غريب الأثر - (ج 3 / ص 494).

[3] - الجَبر: القَهْر، والحَمْل على الفعل ، والظُّلْم الشديد.

ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ)[1].

ونلاحظ أن في المقسمات بها، أدلة دامغة على كون الله عز وجل بالمرصاد في الدنيا، فالمقسمات بها هي أزمنة : "فجر، ليال، سير ليل"، وكذلك هي فعل يحدث في هذه الأزمنة ، وهو عملية الشفع والوتر ، فالله يشفع الناس ويوترهم في زمان، فهذا الفعل لا يحدث خارج نطاق الزمان، بل هو يحدث داخله، ويحتاج إلى زمان قد يطول، لذا، فعلى الإنسان ألا يتعجل، ويعلم أن كل شيء بمقدار وأجل ، والله عز وجل هو الأعلم بالزمان والمكان ، والقدر المناسبين لإنفاذ فعله العظيم، فإذا جاء هذا الأجل لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون! ومن استعجل الشيء قبل أوانه، عوقب بحرمانه.

فكما رأينا من خلال هذه المعاني العظيمة المرتبطة ببعضها ، والمرتبطة بالمقسم عليه، وبالأدلة على المقسم عليه ، وكذلك بكل السورة – كما سنرى بإذن الله وعونه- ، فمن المنطقي أن تأتي الآية التالية فتقول: **"هل في ذلك قسم لذي حجر"**؟

---

[1] - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (2/ 263)، انظر الصَّحِيحَة: 5، وهداية الرواة: 5306.

محور الفقرة الثانية:
كشف حال الطغاة
وما أوتوا من القوة والجبروت
حين أهلكهم الله.

الفقرة الثانية: من الآية 6 وتنتهي بالآية 14

صور الطغيان والباطل ، وتنوعها بين الطغيان بقوة الأجساد المتمثلة في عاد، أو قوة الصناعة والبناء المتمثلة في ثمود، أو قوة القهر والبغي المتمثلة في فرعون، وكلها تشترك في تجاوز الحد والبغي الذي يستجلب عذاب الله .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾[1].

الصورة الأولى للطغيان: صورة الطغيان بقوة الأجساد المتمثلة في عاد:

---

[1] - [سورة الفجر، الآيات 6 - 14]

أ - قصة هود عليه السلام وقومه عاد في القرآن

تمثل قصص الأنبياء في القرآن الكريم منارات يهتدي بها المؤمنون عموماً ، والدعاة منهم خصوصاً في درب هذه الحياة، التي يسود فيها صراع الحق والباطل، والإيمان والشرك، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة.

ومن القصص القرآني الذي يندرج تحت هذا المعنى قصة هود عليه السلام مع قومه هاد.

1 - مواطن ورود قصة قوم عاد مع نبيهم هود في القرآن

قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه عاد وردت في **10** سور من القرآن بين مفصلة ومختصرة:

أولا: 5 سور فصلت في القصة : 1 - الأعراف، 2 - هود، 3 - المؤمنون، 4 - الشعراء، 5 - الأحقاف.

ثانيا: 5 سور اختصرت القصة: 1 - فصلت، 2 - الذاريات، 3 - القمر، 4 - الحاقة، 5 - الفجر.

وقد سميت سورة كاملة بسورة هود، تضمنت قصص عدد من الرسل عليهم السلام، وكان من بينها قصة هود مع قومه. قال ابن كثير: وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع؛ ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

2 - الحكمة من تكرار قصة عاد في الكثير من السور

القرآن العظيم مشتمل على أروع أنواع البلاغة وأقوى تحديات الإعجاز ، وأنفع أساليب البيان. وتكرار قصة قوم عاد في مواضع متعددة من هذا القبيل:

أ - **من ناحية البلاغة:** إبراز المعنى الواحد في صور متعددة ، وأساليب متنوعة، وتفنن شيق، وألفاظ مختلفة رفيعة غاية في البلاغة.

ب – **من ناحية الإعجاز:** إيراد المضمون الواحد في صور متعددة ، مع عجز العرب عن الإتيان بصورة واحدة منها أبلغ في التحدي. علماً بأن العرب في ذلك الوقت وصلوا إلى قمة التفنن في البلاغة ، وحازوا قصب السبق في الفصاحة، وملئوا الدنيا نثراً ونظماً.

ج - **من ناحية البيان :** تكرار القصة الواحدة يلفت الانتباه إليها ويشعر بالاهتمام بها. ويُمكِّن الاعتبار بها في النفس ويرسخها فيها على أساس أن ما تكرر تقرر.

د - **تناسب كل سياق مع السورة :** ومن الحكم أيضا لتكرار قصة عاد في سور متعددة من حيث التفصيل والإيجاز والإشارة، تناسب كل سياق مع السورة التي ورد فيها من حيث الطول والقصر والإطناب والإيجاز إلى غير ذلك من الحكم الكثيرة الجليلة.

3 - تحليل عناصر قصة نبي الله هود عليه السلام وقومه عاد

عقب الطوفان الذي حدث لقوم سيدنا نوح عليه السلام ، لم يبق على الأرض سوى المؤمنين الذين نجاهم الله في السفينة مع سيدنا نوح عليه السلام ، وبعد أن توفاه الله تعالى، نشأت أقوام متعددة ، ونسوا التوحيد ، وأشركوا بالله، وبدؤوا يعودون إلى عبادة الأوثان. فقد قال أحفاد قوم نوح: لا نريد أن ننسى آبا ءنا الذين نجاهم الله من الطوفان، وصنعوا للناجين تماثيل ليذكروهم بها، وتطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل، فإذا الأمر ينقلب إلى العبادة، وإذا بالتماثيل تتحول بمكر من الشيطان واتباع لخطواته إلى آلهة قام الناس بعبادتهم مع الله، وعادت الأرض تشكو من الظلام مرة ثانية، وما كان الله ليعذب قوما حتى يبعث فيهم رسولا منهم يرشدهم إلى الطريق المستقيم، فأرسل الله سيدنا هودا عليه السلام إلى قومه، وهم قوم عاد الذين عبدوا الأصنام وأشركوا بالله.

وقعت مجريات قصة هود عليه السلام في منطقة اسمها (الأحقاف)، (جمع حِقف: وهو الجبل من الرمل)، وهي منطقة تُعرف اليوم باسم (الربع الخالي) في أرض الجزيرة العربية، ما بين عُمان وحضرموت.

محصل القصة أن الله سبحانه أرسل رسوله هوداً عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الصمد، ويطلب منهم نبذ عبادة غيره من الأوثان والآلهة، فسخر منه قومه ، واستمروا في طغيانهم يعمهون، فعاقبهم الله على موقفهم، بأن أرسل عليهم ريحاً قوية، استأصلت شأفتهم، وجعلتهم حصيداً، ونجَّا الله هوداً والذين معه من المؤمنين. وتدور وقائع

هذه القصة وأحداثها على أربعة عناصر رئيسية، ويبقى العنصر الخامس للاعتبار من قبور ومساكن عاد:

العنصر الأول: دعوة النبي هو عليه السلام لقومه عاد:

كان هود عليه السلام رجلاً فاضلاً في قومه، وكان أرجح قومه عقلاً، فأمره الله أن يذهب برسالته إلى قوم عاد، وذهب إليهم وأخبرهم أنه نبي من الله، وقد جاء لهدايتهم. والحقيقة الأولى التي واجه بها هود عليه السلام قومه هو الدعوة إلى توحيد الله، فهو وحده المستحق للعبادة، ولا أحد سواه، وهو وحده الذي يجب عبادته والتوجه إليه بالدعاء، طالبين منه الهداية، أما الأصنام فلا تنفع ولا تضر، ومن آمن وعمل صالحاً كافأه الله بالجنة، ومن كفر به، فعقابه جهنم وبئس المصير، وحذرهم من إغلاق آذانهم عن الحق، والاستماع إلى ما يقوله، حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح عليه السلام. وقال لهم نفس الكلمة التي يقولها كل رسول لقومه. لا تتغير ولا تنقص، كلمة واحدة هي الحق وحده:

1 – قال تعالى على لسان هود عليه السلام: **(يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)**[1].

وسأله قومه مستنكرين: هل تريد أن تكون سيدا علينا بدعوتك؟ وأي أجر تريده؟ هذه الظنون السيئة تتكرر على ألسنة الكافرين عندما يدعوهم نبيهم للإيمان بالله وحده. فعقولهم الصغيرة لا تتجاوز الحياة الدنيوية، ولا

[1] - (الأعراف:65).

يفكرون إلا في السلطة والرياسة. وأفهمهم أن أجره على الله، وأنه لا يريد منهم شيئا، غير أن يغسلوا عقولهم في نور الحقيقة، فحدثهم عن نعمة الله عليهم، وكيف جعلهم خلفاء لقوم نوح، وكيف أعطاهم بسطة في الجسم، وشدة في البأس، وكيف أسكنهم الأرض التي تمنح الخير والزرع. وكيف أرسل عليهم المطر الذي يحي يبه الأرض. وتلفّت قوم هود حولهم ، فوجدوا أنهم أقوى مَن على الأرض، وأصابتهم الكبرياء وزادوا في العناد. فقالوا لهود عليه السلام: كيف تتهم آلهتنا التي وجدنا آباءنا يعبدونها؟ فرد عليهم هود عليه السلام: لقد كان آباؤكم مخطئين.

واستبعدوا إمكانية إحيائهم بعد الموت، وقالوا: بعد أن نموت ونصبح ترابا يتطاير في الهواء، كيف سنعود إلى الحياة !؟ فأجابهم بكل يقين أنهم سيعودون يوم القيامة، و سيسأل الله كل واحد في هم عما فعل. تهامس الكافرون من قومه. وقالوا مستنكرين: كيف يموت الإنسان ويتحلل جسده، و يتحول إلى تراب، ثم يهُبّ الهواء ، ويتطاير التراب. ويعود هذا كله إلى أصله ؟! ثم ما معنى وجود يوم للقيامة؟ ولماذا يقوم الأموات من موتهم؟

استقبل هود عليه السلام كل هذه الأسئلة بصبر كريم، ثم بدأ يحدث قومه عن يوم القيامة.. وأفهمهم أن إيمان الناس بالآخرة ، ضرورة تتصل بعدل الله، مثلما هي ضرورة تتصل بحياة الناس. وقال لهم ما يقوله كل نبي عن يوم القيامة، إن حكمة الخالق المدبر ، لا تكتمل بمجرد بدء الخلق، ثم انتهاء حياة المخلوقين في هذه الأرض، إن هذه الحياة اختبار، يتم الحساب بعدها، فليست تصرفات الناس في الدنيا واحدة، فهناك من يظلم، وهناك

من يقتل، وهناك من يعتدي.. وكثيرا ما نرى الظالمين يذهبون بغير عقاب، وكثيرا ما نرى المعتدين يتمتعون في الحياة بالاحترام والسلطة. فلأين تذهب شكاوى المظلومين؟ وأين يذهب ألم المضطهدين؟ هل يدفن معهم في التراب بعد الموت؟.

و كان خطاب هود لقومه عليه السلام خطاب الناصح المشفق عليهم، الذي يريد الخير لهم، ويتألم لما هم عليه من الشرك والضلال.

2 – قال تعالى في سورة الأعراف : **(أبلغكم رسالات ربي و أنا لكم ناصح أمين)**[1].

ثم أعلن لهم مبدأ المفاصلة، وبين لهم أن موقفه منهم موقف المتبرئ من شركهم، والمتحدي لطغيانهم، والمعتمد على الله في الانتصار عليهم، وهذا ما عبر عنه بقوله تعالى على لسان هود في سورة هود:

3 - **(إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم)**[2]. ثم هو بعدُ يذكّر قومه أنه لا يريد على دعوته جزاء ولا شكوراً:

4 – قال تعالى في سورة هود: **(ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله)**[3]، فهو عليه السلام -كغيره من الرسل والدعاة الصادقين- يلتمس أجره من الله.

---

[1] – (الأعراف:68).

[2] – (هود:54-56).

[3] – (هود:29).

العنصر الثاني: فتح باب التوبة أمام قومه،و تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من نعم.

بيّن هود عليه السلام لقومه أنهم إن تركوا ما هم فيه من الضلال والغي، والتزموا شرع الله، فإن الله سوف يفتح لهم من خزائن رحمته، ويمدهم من فضله، ويزيدهم قوة إلى قوتهم، وغنى إلى غناهم.

1 – قال تعالى في سورة هود: (**ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم**)[1]. وأردف ذلك بتذكير قومه بما أنعم الله عليهم من نعم، وما منَّ عليهم من منن.

2 - قال تعالى في سورة الأعراف: **(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة**)[2]. وتخبرنا بعض الآيات الواردة، أنه عليه السلام بذل أقصى جهده في تذكير قومه بنعم الله عليهم، وتحذيره إياهم من كفرانها، وختم إرشاده لهم بأن بيّن لهم أنه حريص على مصلحتهم، وأنه يخشى عليهم إذا لم يستجيبوا لدعوته أن ينزل بهم عذاب عظيم.

3 – قال تعالى في سورة الشعراء: **(وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)**[3].

---

1 – (هود:52).

2 – (الأعراف:69).

3 – (الشعراء:133-135).

العنصر الثالث: مقابلة قوم عاد لدعوة نبيهم ب الرفض والإعراض والتكبر والاستعلاء في الأرض.

تذكير هود عليه السلام لقومه بالله، لم يزده م إلا إصراراً في غيهم، وعناداً في ضلالهم، حيث أجابوه:

1 – قال تعالى في سورة الأحقاف : (**قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**)[1]، وكان موقفهم من دعوته موقف المتكبر والمتجبر والمستعلي، حيث خاطبوه

2 – قال تعالى في سورة الأعراف : **(إنا لنراك في ضلال مبين**)[2]، وقالوا له أخرى:

3 – قال تعالى في سورة هود: (**إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء**)[3].

العنصر الرابع : بيان عاقبة المعرضين عن دعوة الله، والمنكرين لها، وعاقبة المستجيبين لها، والمنقادين لأمرها.

لما لم يجد هود عليه السلام من قومه إلا الرفض والإعراض ، واجههم بالعاقبة التي سيؤول إليها أمرهم، وانتظر وقومه وع يد الله، وبدأ الجفاف في الأرض، ولم تعد السماء تمطر، وهرع قوم عاد إلى هود مستغربين. ما هذا الجفاف يا هود؟ قال هود عليه السلام : إن الله غاضب عليكم، ولو

---

[1] – (الأحقاف:22)،

[2] – (الأعراف:60)

[3] – (هود:54).

آمنتم فسوف يرضى الله عنكم ، ويرسل المطر ، فيزيدكم قوة إلى قوتكم. فسخر قوم هود منه ، وزادوا في العناد والسخرية والكفر. وزاد الجفاف، واصفرت الأشجار الخضراء، ومات الزرع، وجاء يوم ، فإذا سحاب عظيم يملأ السماء، وفرح قوم هود وخرجوا من بيوتهم يقولون : **(هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا)**. تغير الجو فجأة. من الجفاف الشديد والحر إلى البرد الشديد القارس، وبدأت الرياح تهب، وارتعش كل شيء، وارتعشت الأشجار والنباتات والرجال والنساء والخيام، واستمرت الريح. ليلة بعد ليلة، ويوما بعد يوم، كل ساعة كانت برودتها تزداد. وبدأ قوم هود يفرون، وأسرعوا إلى الخيام واختبئوا داخلها، واشتد هبوب الرياح ، واقتلعت الخيام، واختبئوا تحت الأغطية، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية، وكانت الرياح تمزق الملابس والجلد، وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره، ولا تكاد الريح تمس شيئا إلا قتلته ودمرته، وجعلته كالرميم.

واستمرت الرياح مسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، لم تر الدنيا مثلها قط، ثم توقفت الريح بإذن ربها. ولم يعد باقيا ممن كفر من قوم هود إلا ما يبقى من النخل الميت، مجرد غلاف خارجي لا تكاد تضع يدك عليه حتى يتطاير ذرات في الهواء، كأنهم أعجاز نخل خاوية.

1 - قال تعالى في سورة الأحقاف: **(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا**

أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)[1].

2 – قال تعالى في سورة الأعراف: **(قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب)**[2].

وقد أخبر القرآن الكريم عن العذاب الذي حلَّ بقوم هود بعبارات متنوعة ومعبرة، ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه.

3 - قال تعالى في سورة الأعراف : **(فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين)**[3].

4 – وقال تعالى في سورة هود : **(و أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عادا كفروا ربهم، ألا بعدا لعاد قوم هود)**[4].

---

1 – [الأحقاف: 21 - 26].

2 – (الأعراف:71).

3 – (الأعراف:72).

4 – (هود:60)،

5 – وقال تعالى في سورة الشعراء : **(فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم)**[1].

6 – وقال تعالى في سورة فصلت : **(فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون)**[2].

7 – وقال تعالى في سورة الذاريات: **(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)**[3].

8 – وقال تعالى في سورة الحاقة: **(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)**[4].

9 – وقال تعالى في سورة الفجر: **(فصب عليهم ربك سوط عذاب)**[5].

ونجا هود عليه السلام ومن آمن معه ، وأهلك الله قوم عاد الذين تجبروا في الأرض وأشركوا بالله، وهذه نهاية عادلة لمن يتحدى الله ويستكبر عن عبادته. وقانون من قوانين الله في الحياة. يعذب الله الذين كفروا، مهما كانوا أقوياء أو أغنياء أو جبابرة أو عمالقة. قال تعالى في سورة الشعراء :**(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ)**[6]، ولذلك أبادهم الله كنتيجة لما فعلوا من مساوئ.

---

1 – (الشعراء:189).

2 – (فصلت:16).

3 – (الذاريات:41).

4 – (الحاقة:6).

5 – (الفجر:13).

6 – الشعراء123

وقال تعالى في سورة هود: **(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُواْ أَمْرَكُلِّ جَبَّارٍعَنِيدٍ)**[1]، وقال سبحانه في سورة هود: **(وَ أُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)**[2]، وكانت إبادة الله لهم بالصاعقة و الريح العقيم.

العنصر الخامس: الاعتبار من قبور ومساكن عاد

1 - اكتشاف مدينة إرم ذات العماد

بعد البحث والتنقيب تم اكتشاف مدينة ارم ذات العماد مدفونة في موقع أعمدة الرجاجيل، وهو موقع أثري في منطقة الجوف ، بين اليمن وعمان، ويتكون الموقع من خمسين مجموعة من الأعمدة الحجرية المنتصبة ، والمسماة بالرجاجيل، وتتكون من عدد من الأعمدة الحجرية المنحوتة من الحجر الرملي، ويتراوح عددها من ثلاثة إلى سبعة أعمدة، ويصل ارتفاع بعض الأعمدة القائمة إلى أعلى من ثلاثة أمتار، فيما تبلغ سماكتها نحو ستين سنتيمتر، فكيف تم هذا الاكتشاف الأثري؟

في بداية عام 1990 ميلادي امتلأت الصحف العالمية الكبرى بتقارير تحت عناوين شتى منها "اكتشاف مدينة عربية خرافية مفقودة " و"اكتشاف مدينة عربية أسطورية "، والأمر الذي جعل ذلك الاكتشاف مثيراً للاهتمام هو الإشارة إلى أن ذكر تلك المدينة قد وردت في القرآن

---

[1] – هود59.

[2] – هود60.

الكريم، ومنذ ذلك الحين فإن العديد من الناس الذين كانوا يعتقدون أن "عاداً" التي تحدث عنها القرآن الكريم هي أسطورة لا يمكن اكتشاف مكانها، لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم أمام ذلك الاكتشاف الذي تم إنجازه، بواسطة العالم الأثري "نيكولاس كلاب" ، فهو الذي اكتشف تلك المدينة التي ذُكرت في القرآن الكريم، حيث إنه كان مغرما بكل ما هو عربي، مع كونه منتجاً للأفلام الوثائقية ، حيث عثر على كتاب مثير جداً ، بينما كان يبحث حول التاريخ العربي ، وكان اسم ذلك الكتاب "أرابيا فيليكس" لمؤلفه "بيرترام توماس" ، وهو باحث إنجليزي ، ألفه عام 1932، و"أرابيا فيليكس"، هو الاسم الروماني للجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، والتي تضم اليمن ، والجزء الأكبر من عمان، وقد أطلق اليونان على تلك المنطقة اسم "العرب السعيد"، وسماها العرب في القرون الوسطى "اليمن السعيد"، لأن السكان القدامى لتلك المنطقة كانوا أكثر الناس في عصرهم تمتعا بالحياة بسبب موقعهم الاستراتيجي ، حيث إنهم اعتُبروا وسطاء في تجارة التوابل بين بلاد الهند وبلاد شمال شبه الجزيرة العربية، ومن ناحية أخرى، فإن سكان تلك المنطقة ، اشتهروا بإنتاج "اللبان" ، وهو مادة صمغية عطرية تُستخرَج من نوع نادر من الأشجار. وكان ذلك النبات لا يقل قيمة عن الذهب ، حيث كانت المجتمعات القديمة تُقبل عليه كثيراً، ولكن الباحث الإنكليزي "توماس" الذي ألّف الكتاب، توُفيِقبل أن يتمكن من إكمال بحثه، وبعد أن راجع "كلاب" ما كتبه الباحث الإنجليزي في كتابه، اقتنع بوجود تلك المدينة المفقودة، فبدأ البحث عنها ، واستخدم

"كلاب" طريقة علمية لإثبات وجود الآثار التي تحدث البدو عن وجودها ، ثم غطتها الرمال العالية ، حيث وجد أن الآثار التي ذكرها البدو ، موجودة بالفعل، ولذا قدم طلب ا للالتحاق بوكالة ناسا الفضائية ، ليتمكن من الحصول على صور لتلك المنطقة بالقمر الصناعي، وبعد عناء طويل، نجح في إقناع السلطات ، بأن يلتقط صوراً للمنطقة، كما قام "كلاب" بدراسة المخطوطات والخرائط القديمة ، بمكتبة "هانتينجتون" بولاية كاليفورنيا ، بهدف الحصول على خريطة للمنطقة، وبعد فترة قصيرة من البحث ، وجد واحدة، وكانت خريطة رسمها "بطلمى" عام 200 ميلادية، وهو عالم جغرافي يوناني مصري، وتوضح الخريطة مكان مدينة قديمة اكتُشفت بالمنطقة، والطرق التي تؤد ي إلى تلك المدينة، وفي الوقت نفسه ، تلقى أخباراً بالتقاط وكالة ناسا الفضائية للصور التي جعلت بعض آثار القوافل مرئية ، بعد أن كان من الصعب تمييزها بالعين المجردة، وبمقارنة تلك الصور بالخريطة القديمة التي حصل عليها ، توصل "كلاب" إلى النتيجة التي كان يبحث عنها، وهي أن الآثار الموجودة في الخريطة القديمة، تتطابق مع تلك الموجودة في الصور التي التقطها القمر الصناعي، وهو ما يعني اكتشاف مكان المدينة الأسطورية التي كانت موضوعاً للقصص التي تناقلتها ألسن البدو، وبعد فترة وجيزة ، بدأت عمليات الحفر ، وبدأت الرمال تكشف عن آثار المدينة القديمة ، ولذلك وُصفت المدينة القديمة بأنها (أسطورة الرمال)، فمنذ اللحظة التي بدأت فيها بقايا المدينة في الظهور، كان من الواضح أن تلك المدينة المحطمة ، تنتمي لقوم "عاد" ،

والأعمدة الضخمة، هي لمدينة "إرَم Iram"، التي ذُكرت في القرآن الكريم ، في سورة الفجر ، والتي أُنش ئت لِكي تَكُونَ فريدةَ جداً ، حيث تبدو مستديرة، ويمر بها رواق معمّد دائري، بينما كُلّ المواقع الأخرى في اليمن حتى الآن ، والتي اكتشفت ، كانت أبنيتها ذات أعمدة مربعة، ويُقالُ بأن سكان مدينة إرم بَنوا العديد مِنْ الأعمدةِ التي غطيت بالذهبِ أَو صُنعتْ من الفضةِ ، وكانت هذه الأعمدةِ رائعة المنظر ، وقد تم تصويرها اليوم ، وهي تقع على عمق 10 أمتار تحت طبقات من الرمال الصحراوية، وتتميز بأعمدتها الضخمة ، والتي تم تصويرها وتثبيت موقعها عبر أحد الأقمار الصناعية الأمريكية المتطورة.

إن الذي يسافر إلى جزيرة العرب ، يلاحظ انتشار الصحارى بكثرة في معظم المناطق، باستثناء المدن والمناطق التي زرعت لاحقاً، ولكن كشفت السجلّات التاريخية أن هذه المنطقة تعرضت إلى تغيرات مناخية حولتها إلى صحارى، والتي كَانتْ قبل ذلك أراضي خصبة مُنْتِجةَ ، فقد كانت مساحات واسعة مِنْ المنطقةِ مغطاة بالخضرة ، كما أخبر القرآن عن دعوة نبي الله هود لقومه بقوله من سورة الشعراء: **(وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)**[1].

ولقد كَشفَت صور الأقمار الصناعية التي التقطها أحد الأقمار التابعة لوكالة الفضاء الأمريكية ناسا عام 1990 عن نظامَ واسع مِنْ القنواتِ

[1] – [الشعراء: 132 - 136]

والسدودِ القديمةِ التي استعملت في الرَيِّ في منطقة قوم عاد ، والتي يقدر أنها كانت قادرة على توفير المياه إلى 200.000 شخصَ، كما تم تصوير مجرى لنهرين جافين قرب مساكن قوم عاد، والتي ذكر أحد الباحثين الذي أجرى أبحاثه في تلك المنطقة عنها قائلا: "لقد كانت المناطق التي حول مدينة مأرب خصبة جداً ، ويعتقد أن المناطق الممتدة بين مأرب وحضرموت كانت كلها مزروعة"، كما وَصفَ الكاتبُ القديم اليونانيُ Pliny هذه المنطقةِ أنها كانت ذات أراضي خصبة جداً ، وكانت جبالها تكسوها الغابات الخضراء ، وكانت الأنهار تجري من تحتها، ولقد وجدت بعض النقوشِ في بَعْض المعابدِ القديمةِ قريباً من حضرموت، تصور بعض الحيوانات، مثل الأسود التي لا تعيش في المناطق الصحراوية ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن المنطقة كانت جنات، وأنها مصداقاً لقول القرآن على لسان نبي الله هود ع ليه السلام **(وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)**[1].

2 - سبب اندثار حضارة عاد

سبب اندثار حضارة عاد ، فسّرته مجلة m'interesse الفرنسية، أنه كان بسبب التعرض إلى عاصفة رملية عنيفة ، أدت إلى غمر المدينة بطبقات من الرمال، وصلت سماكتها إلى حوالي 12متر، وهذا تماماً هو مصداق

[1] – [الشعراء: 132 - 136]

لقوله تعالى في كتابه الكريم: **(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ)**[1].

3 - الحفريات تؤكد حقيقة قوم عاد:

هناك دراسة تقول: إن هناك «عاداً» الثانية استناداً إلى قول الله سبحانه وتعالى في سورة النجم: «**وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولى**»[2].

وقد اكتشفت مؤخرا مقبرة لقوم عاد ، في صحراء الربع الخالي خلال عمليات وأنشطة استكشاف الغاز الطبيعي الجارية على قدم وساق في المنطقة الجنوبية الشرقية من الصحراء العربية ، والتي تعرف بالربع الخالي، حيث كشفت الحفريات هناك على بقايا هياكل لبشر ذات حجم هائل بالكبر ، حيث كان الاكتشاف الأول عن طريق فريق الاستكشافات النفطية لشركة أرامكو. والعلماء في العربية السعودية يعتقدون بأن هذه الهياكل هي لبقايا قوم عاد ، وقد وضعت المنطقة بكاملها تحت حماية الجيش السعودي ولا يسمح لأحد بالدخول لها غير موظفي شركة أرامكو العاملين ضمن الفرق الاستكشافية النفطية.

---

[1] – [فصلت: 15، 16].

[2] – النجم الآية 50.

وبعد هلاك الكافرين من قوم هود عليه السلام، لحق ومن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا. وكانت أعمار قوم هود عليه السلام بحدود أربعمائة سنة. وتوفي النبي هود عليه السلام وله من العمر مائة وخمسين سنة .

واختلف في موضع قبر هود عليه السلام ، فقيل: إنه بغار بحضرموت، وقيل أيضاً: إنه دفن في مكة في حجر إسماعيل، أو بالقرب من مكان بئر زمزم.

ب - المستفاد من قصة نبي الله هود عليه السلام وقومه عاد

تضمنت قصة هود عليه السلام العديد من العبر والعظات، نذكر منها:

1 – عاقبة الاعتزاز بالقوة الجسدية وشدة البطش:

الغرور والبطر، والتباهي بالقوة وشدة البطش ، يؤدي إلى أسوأ العواقب، وأوخم النتائج؛ ذلك أن قوم هود ، كانوا يتفاخرون بقوتهم، ويتباهون ببطشهم، ويتطاولون بشدة بأسهم، **(وقالوا من أشد منا قوة)**[1]، ويقولون لرسولهم وهو ينصح لهم: **(سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين)**[2]، فكانت نتيجة تكبرهم وغرورهم، أن أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً، عصفت بهم عصفاً، وجعلتهم كأعجاز نخل خاوية عبرة لمن يعتبر.

2 – ضرورة التذكير بنعم الله على عباده دون انقطاع

[1] – (فصلت:15).

[2] – (الشعراء:136)،

مداومة التذكير بنعم الله على عباده، وبيان أن هذه النعم ، تزداد بشكر الله، وتنمو بطاعته، قال تعالى: **(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم).**

3 - ضرورة المزج بين الوعد والوعيد في الخطاب الدعوي:

ينبغي على الدعاة إلى الله ، أن يجمعوا في أسلوب دعوتهم بين الترغيب والترهيب، ولا يقتصروا على أحدهما؛ إذ في الاقتصار على أحدهما عدم تحقق الدعوة الغرض المرجو منها، بل قد تأتي بعكس النتائج المرجوة منها.

4 - الاعتماد على الله في تبليغ الدعوة إلى الله:

من أعظم العبر المستفادة من هذه القصة، أن الداعي إلى الله عندما يخلص في دعوته، ويعتمد على الله سبحانه في تبليغ رسالته، ويغار عليها كما يغار على عرضه أو أشد ، فإنه في هذه الحالة سيقف في وجه الطغاة المناوئين للحق كالجبل الراسخ الذي لا تنال منه ريح عاصف، ولا سيل جارف، بل يقف شامخاً برأسه، لا يلوي على أحد يعترض سبيل دعوته؛ لأنه يأوي إلى ركن شديد. وهكذا الدعاة المخلصين ، يبلغون رسالة ربهم، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، ويغارون عليها، ويدافعون عنها بكل شجاعة وثبات، وبكل عزم وإصرار.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾[1]. .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

ج – معاني كلمات الفقرة الثانية

1 - إتيان الخبر بأوثق أنواع التوكيد

إن الخبر في الآية يأتي من الله تعالى بأوثق أنواع التوكيد، فلم يقل : **[أرأيت ما فعل ربك بأصحاب الفيل]** ، ولكنه قال:(**ألم تر**) بالاستفهام المراد منه النفي، والداخل على [**لم**] الدالة على النفي، وذلك تقرير وتوكيد بأبلغ أسلوب، لأن نفي النفي إثبات. لأنه حين يُلقَى الخبرُ بصيغة الاستفهام يجعل المتكلمُ شريكاً في إعداد الجواب، فلو قال سبحانه: **[أرأيت ما فعل ربك بعاد...]** كان في ذلك الأسلوب إشراك المخاطب في استنطاقه بالجواب. ولو لم يكن المستفهِم- وهو الله سبحانه- واثقا من أن جوابَ المُخَاطَب سيكون بالإثبات؛ لَمَا أُلقِيَ إليه ذلك السؤال، لكن لعلمه سبحانه بأن الجواب لا يكون إلا بالإثبات ، جاء بالاستفهام (**ألم تر**) ، وذلك آكد في الجواب وأَبين وأثبت.

كما أنه سبحانه وتعالى لم يأتِ بالاستفهام وحده، وإنما جاء بالاستفهام داخلا على النفي [**لم**] فقال : (**ألم تر كيف فعل ربك**)، فكان ذلك

---

[1] - [سورة الفجر آية 6]

استفهاما ليس موحيا بالجواب، إنما متأكدا من جواب المتلقي بالإثبات، وهذا أعظم بلاغة وبيانا.

والحق سبحانه و تعالى حينما يأتي ليقرر بشيء لا يقرره بصيغة الإثبات، ولكن يقرر بالصيغة المقابلة التي هي النفي ، ثقة منه بأن الإجابة ستكون بالإثبات. وعلى هذا جاء كثير من الآيات القرآنية مثل **(ألم نشرح لك صدرك)** ، وقوله تعالى:**(ألم يجعل كيدهم في تضليل)**، وقوله: **(ألم نربك فينا وليدا).**

2 – الإتيان بالرؤية بدل العلم

المراد من الرؤية العلم والتذكير ، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر ، فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً في القوة والجلاء للرؤية.

والاستفهام التقريري هنا مجاز بعلاقة اللزوم، وهو مجاز كثر استعماله في كلامهم فصار كالحقيقة لشهرته.

والرؤية يجوز أن تكون مجازية مستعارة للعلم البالغ من اليقين حد الأمر المرئي لتواتر ما فعل الله بقوم عاد وثمود وشخص فرعون، وبقاء بعض آثار ذلك يشاهدونه. وفعل الرؤية معلق بالاستفهام.

و وردت فيالقرآن **31** مرة، فلماذا جاء التعبير بـ(**ألم تر**) وهو الفعل الذي يدل على الرؤية البصرية، مع أن ما وقع لعاد وثمود وفرعون وجنوده لم يكن الرسول ﷺ ولا حتى قومه حاضرين ، فهو لم يرَ تلك الأحداث ولم يعاينها، وعلى هذا فالمقام يقتضي في التعبير أن يقول سبحانه وتعالى له: (ألم تعلم) بدل (ألم تر). صحيح أن المقام يقتضي في التعبير البشري أن

يقال له: (ألم تعلم) ، لأن هذه الأ حداث لا تدرك إلا بالعلم، لكن التعبير القرآني اختار كلمة(ألم تر)لأن العلم الذي يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ويُخبَر به نبيه من قبله ، وإن كان غيبا فهو بمنزلة الخبر المُشَاهد، ويجب أن يكون إخبار الله العظيم أقوى وسائل العلم ، وهو الرؤية العينية ؛إذ هي من قبيل التجربة الشخصية ، قال تعالى: **(ومن أصدق من الله قيلا)**، وقال سبحانه: **(ومن أصدق من الله حديثا)**.

وهذا هو السبب في أن [ألم ترَ] تأتي كثيرا في القرآن الكريم ، فما دام الخبر من الله تعالى وإن كان غيباً ، فهو بمنزلة الخبر المشاهد المعاين، ويجب أن يكون إخ‍بلر الله له بأقوى وسائل العلم وهو الرؤية العينية ، ولهذا يجيء في كتاب الله تعبير (ألم تر) دون (ألم تعلم).

﴿كَيْفَ﴾.

3 - السر في استعمال (كيف):

إيثار (كيف) دون غيره من أسماء الاستفهام ، أو الموصول ، لحكمة، فلم يقل سبحانه : [ألم تر ما فعل ربك]، أو [الذي فعل ربك]، للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة.

وفي الآية لفتةٌ كريمة إلى كيفية عقاب الله لقوم عاد وثمود وفرعون **(ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد وفرعون ذي الأوتاد)** فلو جاء التعبير [**ألم ترما فعل ربك بعاد إرم ذات العماد وفرعون ذي الأوتاد)**] لصح الكلام ووضع هنا (كيف فعل) مكان(ما فعل). لكن المراد ليس مجرد

فعل، ولكنه فعل على كيفية مخصوصة ، لا تصدر إلا من الله تعالى ، فالعجبُ إذن ليس من الفعل نفسه، ولكن من كيفيته التي وقع عليها.

وهذا السر في التعبير بكلمة(كيف) في الآية الكريمة.

﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾.

4 – السرفي استعمال لفظ (فعل):

وأوثر لفظ (فعل) دون غيره ، لأن مدلول هذا الفعل يعم أعمالا كثيرة لا يدل عليها غيره.

5 – السرفي استعمال لفظ (رب)

وجيء في تعريف الله سبحانه بوصف (رب) مضافا إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن المقصود من التذكير بهذه الأحداث، تكريم النبي ﷺ .

الخلاصة:

الخطابُ لرسول الله ﷺ ، والهمزةُ لتقريرِ رؤيتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بإنكارِ عَدَمِها و "كيفَ" معلقةٌ لفعلِ الرؤيةِ ، منصوبةٌ بما بعدَهَا ، والرؤيةُ عِلْميةٌ، أيْ ألمْ تعلْم علماً رصيناً متاخماً للمشاهدةِ والعَيَانِ باستماعِ الأخبارِ المتواترةِ ومعاينةِ الآثارِ الظَّاهرةِ وَتعليقُ الرؤيةِ بكيفيةِ فعلِه عَزَّ وَجَلَّ لاَ بنفسِه ، بأَنْ يقالَ : ألْم ترَ ما فعلَ ربُّكَ الخ ، لتهويلِ الحادثةِ ،

والإيذانِ بوقوعِها عَلَى كيفيةٍ هائلةٍ، وهيئةٍ عجيبةٍ دالةٍ عَلَى عظمِ قُدرةِ الله تعالَى، وكمالِ علمِه وحكمتِه، وعزةِ بيتِه وشرفِ رسوله ﷺ.

﴿بِعَادٍ﴾. كان قوم عاد متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته ، مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبرا، وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح عليه السلام، ويلقب أيضًا بإرم. قاله ابن إسحاق، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودا عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ، ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، قال تعالى في سورة الحاقة: **(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ *سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)**[1]، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون .

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾[2].

عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

---

[1] – [الحاقة : 6 - 8]

[2] - [سورة الفجر آية 7]

﴿إِرَمَ ﴾ .: هو اسمُ جَدِّهم وبه سُمِّيَت القبيلة. قال مجاهد: إرم: أمة قديمة . يعني : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسدي : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوي .

﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

قال مجاهد ، وقتادة ، والكلبي في قوله : (ذات العماد) كانوا أهل عمود لا يقيمون . وقال العوفي، عن ابن عباس : إنما قيل لهم : (ذات العماد) لطولهم . واختار الأول ابن جرير ، ورد الثاني فأصاب . ولا تناقض بين القولين لأن طول قامتهم يتطلب بيوت عالية ذات أعمدة، لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خِلْقة وأقواهم بطشا، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال سبحانه في سورة الأعراف: (**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)[1]. وقال تعالى في سورة فصلت : (**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** *

[1] – [الأعراف : 69]

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ)[1].

عن المقدام ﷺ، عن النبي - ﷺ - أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: كان الرجل منهم يأتي على صخرة فيحملها على الحي فيهلكهم .

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾[2].

1 – **الضميريعود على العماد:** أعاد ابن زيد الضمير على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال : بنوا عمدا بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد . ومذهبه ضعيف ؛لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التي لم يُعمل مثلها في البلاد ، وإنما قال : (لم يخلق مثلها في البلاد)

2 - **الضمير يعود على القبيلة :** أعاد قتادة وابن جرير الضمير على القبيلة، أي : لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم . وهذا القول هو الصواب.

أي : القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم أي سكان الخيام، وكانت منازلهم بالرمال والأحقاف إلى حضر موت. وتعني ذات العماد، الشدةِ، أو الأبْنِيَة الرَّفيعةِ المُحكَمَة بالعَمَد.

ألم تر - أيها الرسول- كيف فعل ربُّك بقوم عاد، قبيلة إرم، ذات القوة الجسدية والأبنية المرفوعة على الأعمدة، التي لم يُخلق مثلها في البلاد في

---

1 – [فصلت : 15].

2 - [سورة الفجر آية 8]

عِظَم الأجساد وقوة البأس؟ وسواء كان المراد من "مثلها" المدينة نفسها ، أو القبيلة نفسها ، كما قال الله تعالى: **(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** [1]. فالشاهد أن الله قد أهلك هؤلاء القوم الذين زادهم بسطة في الأجسام، حتى قالوا: من أشد منا قوة!؟ فأنزل عليهم العذاب بالريح فبادوا!

فآية نبي الله هود عليه السلام، وقومه عاد لها خاص ولها عام، فخاصّها ينصبُّ على عاد، وعامُّها ينصبُّ على أيّة جهةٍ قويةٍ في الأرض تزعم أنّها أقوى قوةٍ في الأرض، وأن لا أحد يقف في وجهها.

الصورة الثانية للطغيان: صورة الطغيان بقوة الصناعة والبناء المتمثلة في ثمود:

أ - نبي الله صالح عليه السلام وقومه ثمود في القرآن

يقص علينا القرآن الكريم مشهدا من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل، ومصرعا جديدا من مصارع المكذبين، من خلال قصة النبي صالح عليه السلام، وهو يدعو قومه ثمود إلى توحيد الله تعالى، وإفراده وحده سبحانه بالعبودية، وترك ما سواه من الآلهة المصطنعة، التي لا تملك من الأمر شيئاً.

1 - مواطن ورود قصة قوم ثمود مع نبيهم في القرآن

---

[1] – [الأعراف: 69]

قصة النبي صالح عليه السلام مع قومه ثمود وردت في **21** سورة من القرآن بين مفصلة ومختصرة، ومشار إليها:

أولا: (5) سور فصلت في القصة : 1 - (الأعراف)، 2 - و(هود)، 3 - و(الحِجر)، 4 - و(الشعراء)، 5 - و(فصلت).

ثانيا: (6) سور اختصرت القصة : 1 - (الإسراء)، 2 - و(النمل)، 3 - و(الذاريات)، 4 - و(الحاقة)، 5 - و(الفجر)، 6 - و(الشمس)،

ثالثا: (10) سور أشارت إلى القصة : 1 - (التوبة)، 2 - و(إبراهيم)، 3 - و(الحج)، 4 - و(الفرقان)، 5 - و(العنكبوت)، 6 - و(ص)، 7 - و(غافر)، 8 – و(ق)، 9 - و(النجم)، 10 - و(البروج).

2 - الحكمة من تكرار قصة ثمود في الكثير من السور

القرآن العظيم مشتمل على أروع أنواع البلاغة وأقوى تحديات الإعجاز ، وأنفع أساليب البيان. وتكرار قصة قوم ثمود في مواضع متعددة من هذا القبيل:

أ - من ناحية البلاغة: إبراز المعنى الواحد في صور متعددة ، وأساليب متنوعة، وتفنن شيق، وألفاظ مختلفة رفيعة غاية في البلاغة.

ب – من ناحية الإعجاز: إيراد المضمون الواحد ، في صور متعددة ، مع عجز العرب عن الإتيان بصورة واحدة منها أبلغ في التحدي. علماً بأن العرب في ذلك الوقت ، وصلوا إلى قمة التفنن في البلاغة ، وحازوا قصب السبق في الفصاحة، وملؤوا الدنيا نثراً ونظماً.

ج - **من ناحية البيان:** تَكرار القصة الواحدة ، يلفت الانتباه إليها ، ويشعر بالاهتمام بها. ويُمكّن الاعتبار بها في النفس ، ويرسخها فيها ، على أساس أن ما تكرر تقرر.

د - **تناسب كل سياق مع السورة:** ومن الحكم أيضا لتكرار قصة ثمود في سور متعددة من حيث التفصيل والإيجاز والإشارة، تناسب كل سياق مع السورة التي ورد فيها ، من حيث الطول والقصر والإطناب والإيجاز ، إلى غير ذلك من الحكم الكثيرة الجليلة.

3 - تحليل عناصر قصة نبي الله صالح عليه السلام وقومه ثمود.

تدور وقائع هذه القصة وأحداثها على ثمانية عناصر رئيسية:

العنصر الأول: موقع ديار ثمود:

أولا: أقول العلماء حول الموقع:

1 - ديار ثمود في مدينة الحِجر على بعد 22كم، شمال شرق مدينة العلا ، وهو المكان المعروف عند الناس بمدائن صالح ، وما زال اسم الحِجر منتشراً بين أهل تلك المنطقة إلى اليوم ، وقد ذكر الحِجر في القرآن في قوله تعالى: (**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِين**)، ومذكور في السنة كما في صحيح البخاري، عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبره: (**أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود الحجر ، فاستقوا من بئرها واعتجنوا به ،**

فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها ، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة)[1].

2 - هذه هي المنطقة المعروفة المشهورة من قديم إلى يومنا ، وهي أظهر وأشهر ما يراه السائر من الشام للحجاز ، قال ابن كثير: "وثمود قوم صالح، كانوا يسكنون الحجر ، قريباً من وادي القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً ، وتمر عليها كثيراً "[2]. بل قال البلقيني : "إن معرفة بئر الناقة، معلوم بالتواتر، إذ لا يشترط فيه الإسلام"[3].

3 - الحجر مدينة معروفة في طريق الحجاج ، يعرف الناس بئر الناقة ، ويردون عليها ، ويستقون منها ، إلى أن اندرس العلم ببئر الناقة في أزمان متأخرة، فصاروا يمرون على ديار ثمود، ولا يعلمون أين هي بئر الناقة.

قال السفاريني رحمه الله: "جزم علماؤنا أنه لا يباح من آبار ثمود إلا بئر الناقة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هي البئر الكبيرة التي يردها الحجاج في هذه الأزمنة –يعني أزمنته-. قلت: هي الآن مجهولة، فقد سألت عنها (أي بئر الناقة) لما مررنا بها في ذهابنا وإيابنا سنة حجنا، وهي سنة ألف ومائة وثمانية وأربعين، فلم يخبرني بها أحد"[4].

---

[1] - (البخاري 3379).

[2] – (تفسير ابن كثير 278/6).

[3] - (انظر: فتح الباري 380/6).

[4] – (شرح ثلاثيات أحمد 52/1).

4 - تشمل جميع المباني في تلك المنطقة وما حولها ، كما قال ابن جرير: "وكانت مساكنها الحِجْر، بين الحجاز والشام، إلى وادي القُرَى وما حوله"[1].

5 - وصْف المؤرخين وعلماء البلدان للمنطقة وبنائها كله ، يشير إلى ما هو معروف اليوم بمدائن صالح ، قال ياقوت الحموي: "والحِجْر: اسم ديار ثمود بوادي القرى ، بين المدينة والشام ، قال الاصطخري: الحجر قرية صغيرة قليلة السكان، وهو من وادي القرى، على يوم بين جبال، وبها كانت منازل ثمود، قال الله تعالى: **(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ)**، قال: ورأيتها بيوتا مثل بيوتنا في أضعاف جبال ، وتسمى تلك الجبال الأثالث، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة، فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها، يطوف بكل قطعة منها الطائف ، وحواليها الرمل، لا تكاد ترتقى، كل قطعة منها قائمة بنفسها، لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة، وبها بئر ثمود ، التي قال الله فيها وفي الناقة : (لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)"[2].

فثبت لنا أنها بنايات في الجبال ، في مدينة الحِجر ، في طريق المسافر من الحجاز للشام، ومر بها النبي ﷺ في غزوة تبوك ، وأنها هي ديار ثمود قوم صالح عليه السلام، وما زال الناس يتناقلون الخبر عنها جيلاً بعد جيل من قبل الإسلام، على الظن الجازم الذي تحول إلى القطع بعد مرور النبي صلى الله عليه وسلم منها.

---

[1] – (جامع البيان 524/12).

[2] – (معجم البلدان 221/2).

ثانيا: إشكالات حول المكان:

يستشكل بعض الناس ما يقوله بعض علماء الآثار من معلومات قد يظن لأول وهلة أنها تدفع أن تكون مدينة الحجر - أو ما يسمى اليوم مدائن صالح- هي ديار ثمود وقوم نبي الله صالح عليه السلام ، ومن تلك الإشكالات:

1 - الكتابات في الحِجر نبطية

يستشكل بعض الناس كون الرسوم والكتابات في الحِجر من صنع الأنباط في القرن الثاني قبل الميلاد ، فكيف تكون هي ديار ثمود؟ لا مانع من أن يكون سكن الحِجر بعد ثمود اللحيانيون قبل ميلاد المسيح عليه السلام بتسعة قرون، ثم احتلها الأنباط في القرن الثاني قبل الميلاد ، واتخذوا من بيوت الحِجر معابد ومقابر ، وأعادوا زخرفتها ، ونسبوها لأنفسهم في نقوشهم وكتاباتهم ، وجعلوها عاصمتهم الجنوبية ، والبتراء عاصمتهم الشمالية. ومع ذلك يبقى لها أحكامها ، وتنسب لأهلها الأوائل؛ كما نسبها لهم النبي ﷺ ، **"أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود الحجر.... فقال:لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم"**[1].

2 - لا توجد آثار زلزال في الحجر

يقول البعض: إنه لا توجد آثار زلزال في منطقة الحِجر ، وما يسمى مدائن صالح، مع وجود آثار لزلزال في منطقة أخرى قريبة من الساحل.

---

1 - (البخاري 3379).

ولتوضيح ذلك يقال: إن ديار ثمود التي مر عليه رسول الله ﷺ في الحِجر، كما قال الله تعالى: (**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ**)، وعرفها الناس قبل الإسلام وبعده إلى اليوم. وعذاب الله لثمود قوم صالح ، كان الصيحة وليست الزلزلة، كما في الآيات الصريحة الدالة على ذلك.

أما قوله تعالى: (**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**) فمعناه الصيحة القوية التي زعزعتهم وحركتهم للهلاك ، وهو قول مجاهد والسدي ، وجمهور المفسرين ، كما يسمي العرب الشيء العظيم بأسماء مختلفة، كل اسم دال على معنى فيه، كما سميت الصيحة أيضاً بالطاغية؛ لأنها طغت وتجاوزت غيرها. قال ابن جرير:"القول في تأويل قوله: (**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**). قال أبو جعفر الطبري: يقول تعالى ذكره: فأخذت الذين عقروا الناقةَ من ثمود الرجفة، وهي الصيحة. والرجفة: الفِعلة، من قول القائل: رجَف بفلان كذا يرجُفُ رجْفًا، وذلك إذا حرَّكه وزعزعه... وإنما عنى بـ(الرجفة) ها هنا ، الصيحة التي زعزعتهم وحركتهم للهلاك؛ لأن ثمود هلكت بالصيحة، فيما ذكر أهل العلم"[1].

وإذا قيل بأن الرجفة هي الزلزلة كما قال بعض المفسرين، فالله قادر على إبقاء الديار كآية ، وظاهر القرآن ، أن دُورهم لم يصبها شيء ، على الخلاف في معنى الدار في قوله تعالى: (**فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**)[2]. وربما أصلح

[1] – (جامع البيان، للطبري 545/12).

[2] – (انظر: الطبري545/2).

الأنباط بعض آثار الزلزال، على أن الراجح أن الرجفة بمعنى الصيحة كما سبق.

3 - كانت الحجر طريقاً للحجاج

يشكل على البعض ، وجود عدد من أمارات التواجد والحراك السكاني في الحجر، كوجود سكة الحديد ، والقلعة، إضافة إلى أن فيها محطة لقوافل الحجيج واستراحاتهم، فكيف تكون هي المنطقة المنهي عن دخولها إلا على حال البكاء؟ ولتوضيح ذلك يقال: أما كونها طريقاً للحجاج ، فلا مانع من ذلك، وقد مرَّ بها النبي ﷺ -وإن لم ينزل-, وزيارة الناس لديار ثمود ، وكون الحجاج يقصدونها أثناء سيرهم للاعتبار والعظة ، لا بأس فيه كذلك، بل قال تعالى عن موقع عذاب قوم لوط: **(وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ • وَبِاللَّيْلِ)**، وقال سبحانه: **(وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيم)**، ووجود عدد من القلاع هناك، لا شك في جوازه إذا وجدت مصلحة راجحة ، كالمحافظة على ماء بئر الناقة، أو حماية قوافل الحجاج، وجعل القلعة محطة راحة لهم.

ثم إنه لا يسوغ الاستدلال بفعل الناس على الحكم الشرعي ، فقد ضيع البعض أهم شعائر الدين وأصوله، ولا يستدل أحد على صحة الفعل بوقوعه وكثرة فاعليه، فالمرجع في ذلك للكتاب والسنة.

4 - تسميتها بمدائن صالح في العصور المتأخرة

سمى الله المنطقة بالحِجْر ، وهو اسمها القديم المعروف إلى اليوم ، ويمكن تسميتها بديار ثمود ، كما نسبها إليهم القرآن ، قال تعالى: **(فَأَصْبَحُوا فِي**

دَارِهِمْ جَاثِمِين)، ويسميها كثير من الناس اليوم ، مدائن صالح ، وهي تسمية حادثة في العصور المتأخرة، وقد يكون ذلك من نسبة العوام المباني لنبي الله صالح عليه السلام المرسل إلى ثمود، أو يكون ما ذكره البرزالي صحيحاً في أنها نسبة لرجل اسمه صالح من بني العباس . قال ابن ناصر الدين: "ومدائن صالح التي بالقرب من العلا ، في طريق الحاج من الشام ، بلد إسلامي، وصالح المنسوبة إليه من بني العباس بن عبد المطلب ، وفيها قبور عليها نصائب ، تاريخها بعد الثلاث م ائة، ذكره الحافظ أبو محمد القاسم ابن البرزالي فيما وجدته بخطه"[1] .

العنصر الثاني: دعوة النبي صالح عليه السلام لقومه ثمود:

دعوة النبي صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده والإخلاص له، ونبذ كل معبود سواه، سواء أكان المعبود صنماً، أم وثناً، أم غير ذلك. وقد تعددت الآيات الواردة في تقرير هذه الدعوة، منها:

1 - قوله تعالى: **(قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)**[2].

2 - وقوله عز وجل: **(إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون)**[3].

3 - وقوله سبحانه: **(أن اعبدوا الله)**[4].

4 - وقوله عز من قائل: **(فاستغفروه ثم توبوا إليه)**[1].

---

1 – (توضيح المشتبه 97/8).

2 – (الأعراف:73).

3 – (الشعراء:142).

4 – (النمل:45).

5 - وقوله تعالى: (**لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون**)[2].

العنصر الثالث: ذِكْر المعجزة التي جاء بها نبي الله صالح عليه السلام ، تصديقاً لرسالته، و انقياداً لدعوته.

ناقة صالح عليه السلام ، تعتبر معجزة مؤيِّدة له على صدق نبوته، لهذا ليست مجرد ناقة عادية. إنها الناقة التي شرفها الله تعالى بنسبتها إليه فقال سبحانه: (**ناقة الله**) مثل (**بيت الله**) و (**كتاب الله**)؛ لأنها كانت آية من آيات الله تعالى، ومعجزة من معجزات نبي الله صالح عليه السلام.

كانت ناقة صالح ناقة مباركة، كانت تشرب يوما كاملا ، ويحلبونها في اليوم التالي، وكان لبنها يكفي آلاف الرجال والنساء والأطفال.

عاشت الناقة بين قوم صالح، فلَمن منهم من آمن، وبقي أغلبهم على العناد والكفر، وقد حذرهم نبي الله صالح عليه السلام من المساس بالناقة، وإلا أخذهم الله بعذاب أليم. فكان طلبه عليه السلام من قومه سوى ترك الناقة تأكل في أرض الله وتشرب ، ولا يمسوها بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم، كما ذكرهم بإنعام الله تعالى عليهم: بأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد. وأنعم عليهم بالقصور والجبال المنحوتة، والنعيم والرزق والقوة، لكن قومه تجاوزوا كلماته وتركوه، واتجهوا إلى الذين آمنوا بصالح.

---

[1] – (هود:61).

[2] – (النمل:46).

ثم تعدت الكراهية من سيدنا صالح والذين آمنوا معه إلى الناقة المباركة، وبدأت المؤامرة تنسج خيوطها ضد الناقة، ودبروا في أنفسهم أمرا.

وفي إحدى الليالي، انعقدت جلسة لكبار القوم، يتشاورون فيما يجب القيام به لإنهاء دعوة صالح، فأشار عليهم واحد منهم بقتل الناقة، ومن ثم قتل صالح نفسه.

وهذا هو سلاح الظلمة والكفرة في كل زمان ومكان، يعمدون إلى القوة والسلاح والإرهاب، بدل الحوار والنقاش بالحجج والبراهين، لأنهم يعلمون أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، ومهما امتد بهم الزمان سيظهر الحق ويُبطل كل حججهم، وهم لا يريدون أن يصلوا لهذه المرحلة، وقرروا القضاء على الحق قبل أن تقوى شوكته.

لكن أحدهم قال: حذرنا صالح من المساس بالناقة، وهددنا بالعذاب القريب، فقال أحدهم سريعا قبل أن يؤثر كلام من سبقه على عقول القوم: أعرف من يجرؤ على قتل الناقة، واتُّفق على موعد الجريمة، ومكان التنفيذ، وفي الليلة المحددة، وبينما كانت الناقة المباركة تنام في سلام، إذ خرج أشقى القوم وشرب الخمر وقتل الناقة.

علم النبي صالح عليه السلام بما حدث، فخرج غاضبا على قومه، وقال لهم: ألم أحذركم من أن تمسوا الناقة؟ قالوا: قتلناها فأتنا بالعذاب واستعجلوه، ألم تقل: إنك من المرسلين؟ قال صالح لقومه: **(تَمَتَّعُواْ فِي**

دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) [1]، بعدها غادر صالح قومه، وتركهم ومضى، وانتهى الأمر، ووعده الله بهلاكهم بعد ثلاثة أيام.

ومرت ثلاثة أيام على الكافرين من قوم صالح ، وهم يهزءون من العذاب وينتظرون، وفي فجر اليوم الرابع: انشقت السماء عن صيحة جبارة، فهلك فيها كل شيء حي، هي صرخة واحدة. لم يكد أولها يبدأ وآخرها يجيء حتى كان كفار قوم صالح قد صعقوا جميعا صعقة واحدة.

فهلكوا جميعا قبل أن يدركوا ما حدث، أما الذين آمنوا بسيدنا صالح، فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجوا. وفي هذا جاء في القرآن الكريم:

1 - قوله تعالى: **(قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية)**[2].

2 - وقوله سبحانه: **(و آتينا ثمود الناقة مبصرة)**[3].

3 - وقوله عز وجل: **(قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم)**[4] .

العنصر الرابع: تذكير قوم ثمود بما أنعم الله عليه م من نعم، وما منَّ عليهم من مِنَن:

1 - قال عز من قائل في سورة الأعراف: **(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا).**

---

[1] – (الأعراف:74).

[2] – (الأعراف:73).

[3] – (الإسراء:59)..

[4] – (الشعراء:155).

2 - وقال سبحانه في سورة هود : **(هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)**[1].

العنصر الخامس: الإنكار على قوم ثمود فسادهم العريض، وطغيانهم الكبير، و إيثارهم للحياة الدنيا على الآخرة.

1 - قال تعالى في سورة الأعراف : **(فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)**[2].

2 - وقال سبحانه في سورة الحجرات : **(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين)**[3].

3 - وقال عز وجل في سورة الشعراء : **(أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين)**[4].

4 - وقال عز من قائل في سورة النمل : **(يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة)**[5].

---

1 – (هود:61).

2 – (الأعراف:74).

3 – (الحجر:82).

4 - (الشعراء:146-149).

5 – (النمل:46).

العنصر السادس: موقف قوم صالح عليه السلام من دعوته نحا منحى السخرية والتكبر والاستعلاء في الأرض.

وهو ما أشارت إليه الآيات التاليات:

1 - قوله سبحانه في سورة الأعراف : **(فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين)**[1].

2 - وقوله تعالى في سورة هود : **(قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا و إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب)**[2].

3 - وقوله سبحانه في سورة الحجر : **(و آتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين)**[3].

4 - وقوله عز وجل في سورة : **(قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين)**[4].

5 - وقوله عز من قائل في سورة النمل: **(قالوا اطيرنا بك وبمن معك)**[5].

6 - وقوله تعالى في سورة القمر : **(فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر * أؤلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر)**[1].

---

[1] – (الأعراف:77).

[2] – (هود:62).

[3] – (الحجر:81).

[4] – (الشعراء:153-154).

[5] – (النمل:47).

العنصر السابع: بيان عاقبة المعرضين عن دعوة الله، والمنكرين لها، وعاقبة المستجيبين لها، والمنقادين لأمرها.

وهو ما عبرت عنه الآيات الآتية:

1 - قوله تعالى: **(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)**[2].

2 - قال تعالى في سورة هود: **(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود)**[3].

3 - وقوله سبحانه في سورة الحجر: **(فأخذتهم الصيحة مصبحين)**[4].

4 - وقوله عز وجل في سورة هود: **(فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ)**[5].

5 - وقوله تعالى في سورة الشعراء: **(فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)**[6].

---

1 - (القمر:24-25).

2 - (الأعراف:78).

3 - (هود:67-68).

4 - (الحجر:83).

5 - (هود:66).

6 - (الشعراء:158).

6 - وقوله عز وجل في سورة النمل : **(فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون)**[1].

7 - وقوله تعالى في سورة فصلت : **(فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون)**[2].

8 - وقوله سبحانه في سورة الذاريات : **(فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين)**[3].

9 - وقوله تعالى في سورة الحاقة: **(فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية)**[4].

10 - وقوله عز وجل في سورة الشمس : **(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها)**[5].

العنصر الثامن: حكم زيارة ديار ثمود:

أولا: الأمر بالاعتبار من أحوال من سبقنا

أمر الله عز وجل عموماً بالسير في الأرض ، والاعتبار من أحوال من سبقنا ممن كذّبوا رسلهم للاعتبار والعظة:

---

[1] – (النمل:51-52).

[2] – (فصلت:17).

[3] – (الذاريات:44-45).

[4] – (الحاقة:5).

[5] – (الشمس:14).

1 - قال تعالى في سورة الأنعام: **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين)**[1].

2 - وقال تعالى في سورة الروم : **(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا)**[2]. "أي: أولم يسر هؤلاء المكذّبون بالله، الغافلون عن الآخرة من قريش، في البلاد التي يسلكونها تجّارًا، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذّبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها"[3].

ثانيا: النهي عن دخول ديار قوم ثمود خصوصًا:

1 - عن ابن عمر ﵁ أن النبي ﷺ لما مر بالحِجر قال: **("لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين"، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي)**[4]. ومعنى تقنع: أي تستر بردائه.

2 - وعن ابن عمر ﵁: **(أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها، وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين،وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة)**[5].

---

[1] - الأنعام، 11.

[2] - الروم،9.

[3] - (انظر: تفسير الطبري 78/20).

[4] - (البخاري 4419، مسلم 2980).

[5] – (البخاري 3379، مسلم 2981).

ثالثا: أحوال زيارة ديار ثمود:

ويمكن القول بأن زيارة ديار ثمود في الحِجر لها حالتان:

الحالة الأولى: زيارتها لمصلحة راجحة كالتفكر والاعتبار، أو التوثيق والتعلم والتعليم، أو الوعظ والتذكير:

فهذا يجوز بشرط أن يكون السائح أو الزائر لها على حالة من الخشوع والتفكر والاعتبار والبكاء، وليس لمجرد المتعة بمشاهدة المباني والقصور.

ودليل جواز زيارتها للمصلحة أمور:

1 - عموم الأدلة الداعية للسير في الأرض والآمرة به ، مع التفكر والنظر في مصارع الأقوام السابقة ، مثل قوله تعالى: **(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون)**، وقوله عز وجل: **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين)**، ومعنى السير ، هو السير الحقيقي، والسفر لتلك الأماكن ، قال البغوي في تفسير السَّيْر المذكور: "أولم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا" [1]. وإن كان يدخل فيه السير بالأفهام ، والتفكر في ما يسمعه من الناس عن أحوال الأمم السابقة وهلاكها.

---

[1] – (تفسير البغوي 262/6).

2 - لم ينه النبي ﷺ عن زيارتها مطلقاً ، بل أباحه بشرط التفكر والخوف والاعتبار فقال: (**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين**)، قال ابن الجوزي رحمه الله في معنى البكاء الوارد في الحديث: "إنما ينشأ البكاء عن التفكر، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء"[1].

وهذا هو معنى النظر في عاقبة الظالمين المكذبين ، كما ورد في الآيات، وأكمل الاعتبار والتفكر يكون بالبكاء من خشية الله.

الحالة الثانية: زيارتها لمجرد التسلية والتعرف ، وربما تعظيم ما كانوا عليه بدون اعتبار ولا تفكر، مثل ما يقع لكثير من الناس: فلا شك في مخالفته لحديث رسول الله ﷺ، ونهيه عن الدخول إلا على حالة الخوف والاعتبار، والتفكر في قوله: " **لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم**"، أي حتى لا يصيبكم ما أصابهم.

والراجح، أن هذا النهي للتحريم ، كما عليه جمهور أهل العلم ، خلافاً لمن قال بالكراهة؛ فقد نهى الصحابة رضي الله عنهم، وهم في الجهاد ، عن الدخول إلا على هذه الصفة، فكيف لمن كان قصده النزهة لا غير، فالأصل في النهي التحريم ، ولا صارف له عن ذلك ، ثم إن مخالفة النهي مخوفة بوقوع العذاب كما في الحديث[2].

---

[1] - (كشف المشكل لابن الجوزي 483/2).

[2] - (انظر: فتح الباري لابن رجب 433/2).

قال ابن تيمية رحمه الله : "فأي تحريم أبين من هذا! قوم مجاهدون في سبيل الله، في غزوة العسرة التي غلب عليهم فيها الحاجة، وهي غزوة تبوك، التي لم يكن يحصي عددهم فيها ديوان حافظ ، وخرجوا في شدة من العيش وقلة من المال، ومع هذا يأمرهم أن لا يأكلوا عجينهم الذي هو أعز أطعمتهم عندهم ، فلو كان إلى الإباحة سبيل ، لكان أولئك القوم أحق الناس بالإباحة"[1].

رابعا: التفكر المطلوب:

التفكر والاعتبار الذي يشترط لزيارة ديار ثمود:

1- التفكر في عظمة الله سبحانه وشدة نقمته وعذابه لمن كفر به و أنه شديد المحال:

فكل من دخل أماكن العذاب أو مرّ بها ، فينبغي عليه أن يستصحب الخوف من الله، والاستشعار لعظيم نقمة الله عز وجل، وأنه الجبّار المنتقم، فإذا شاء أَخَذَ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ ، قال تعالى: **(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون)**.

2- الاعتبار بحال ثمود لما كفروا:

فقوم ثمود مع ما آتاهم الله من النعم والقوة ، كفروا، فاستحبوا العمى على الهدى، وضلوا بعد ما أرسل الله لهم الآيات والرسل ، فما أغنت عنهم

---

[1] – (شرح العمدة 511/4).

قوتهم وجبروتهم لما كفروا بالله ، وكيف تعدى أثر وشؤم معصيتهم إلى المكان والماء والتراب.

3- الاعتبار بحال الزائر نفسه:

فالزائر لعظم نعمة الله عليه ، بتوفيقه للإيمان، واعتباره بغيره، وتمكينه من الاستدراك، وإمهاله مع العصيان، ومسامحته مع الزلل، فيستدرك ما فاته ويحاسب نفسه[1].

وينبغي أن يكون الاعتبار والتفكر مصاحباً للزائر طوال زيارته ، ويذكر نفسه به, قال ابن حجر: "قوله: (**إلا أن تكونوا باكين**)، ليس المراد الاقتصار في ذلك على ابتداء الدخول، بل دائمًا عند كل جزء من الدخول، وأما الاستقرار فالكيفية المذكورة مطلوبة فيه بالأولوية"[2].

ب - التعابير الدالة على عقاب ثمود في القرآن:

يلاحظ أن الآيات الكريمة عبرت عن العذاب الذي أصاب قوم صالح عليه السلام:

- تارة بـ (**الصيحة**).
- وتارة بـ (**الرجفة**).
- وتارة بـ (**الصاعقة**).
- وتارة (**بالطاغية**)،.

---

[1] – (انظر: كشف المشكل لابن الجوزي 2/483-484). بتصرف.

[2] - (فتح الباري، لابن حجر، 1/530).

ولا تعارض بين هذه التعبيرات؛ لأنها متقاربة في معناها، ويكمل بعضها بعضاً، وهي تدل على شدة ما أصابهم من عذاب.

وعلى العكس من ذلك، فقد كانت عاقبة المؤمنين النجاة والتأييد من الله رب العالمين؛ وذلك ببركة تقواهم، وخوفهم من عذاب خالقهم، واتباعهم للحق الذي جاءهم به.

1 - قال تعالى: **(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)**[1].

2 - قال عز وجل: **(و أنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)**[2].

3 - وقال سبحانه: **(ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)**[3].

وفي هذا البيان تأكيد لسُنَّة من سُنَن الله التي لا تتخلف ولا تتبدل، ألا وهي عقاب الظالمين، ونجاة المؤمنين.

ج - المستفاد من قصة نبي الله صالح عليه السلام وقومه ثمود.

قصة النبي صالح عليه السلام مع قومه - كسائر قصص القرآن- غنية بالعبر، وزاخرة بالعظات، نذكر منها:

1 - الجمع بين الترغيب والترهيب قصد الإقناع

1 – [هود: 66].

2 – (النمل:53).

3 – (فصلت:18).

بذل صالح عليه السلام مع قومه غاية ألوان الترغيب والترهيب، وهو يدعوهم إلى عبادة الله، ونبذ كل شيء سواه. وقد داوم على هذه الدعوة دون يأس أو ملل، إلى أن بلَّغ رسالة ربه على الوجه الأكمل.

2 - الاعتبار بآثار الظالمين:

العقلاء من الناس يعتبرون بآثار الظالمين، ويربئون بأنفسهم عن أن يسلكوا، أو أن يسكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أولئك الظالمين.

3 - أثر الإيمان على الفرد في تبليغ الدعوة

إذا خالط الإيمان بشاش ة القلوب، واستقر في النفوس، ولَّد فيها الشجاعة، والقوة، والإقدام، والصراحة.

4 – علامة الإخلاص والحكمة:

استعمال أحكم الأساليب وأقومها وأقواها في الدعوة إلى الله . و العقلاء المخلصون، يستعملون دائماً في دعوتهم الأساليب المنطقية الحكيمة مع غيرهم، وهذا نراه واضحاً في جدال صالح عليه السلام مع قومه، كما تجلى ذلك في قوله سبحانه: **(لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون)**[1]. وأن صالحاً سلك في دعوته لقومه أحكم الأساليب وأقومها وأقواها.

5 – سوء توظيف النعمة يقلبها إلى نقمة

[1] – (النمل:46)

النعم التي يُنعم الله بها على عباده، إذا لم يُحْسِن العباد تسخيرها في طاعة الله، فإنها تنقلب عليهم نقماً.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾[1].

﴿وَثَمُودَ﴾. كانت ثمود قبيلة أو مجموعة قبائل من سكان شبه الجزيرة العربية القدماء ، وقد عدهم النسابون المسلمون القدامى من العرب القدماء. و أقدم الكتابات المكتشفة عن ثمود ، تعود لنقش لسرجون الآشوري، يرجع تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، حيث دارت بينهم وبين الآشورين معارك، كما ورد اسم ثمود في معبد إغريقي بشمال غرب الحجاز بني عام 169 م، وفي مؤلفات أرسطو وبطليموس وبلينيوس. وفي كتب بيزنطية تعود للقرن الخامس. وأيضا في نقوش أثرية حول مدينة تيماء. وفي قصائد الشعراء كالأعشى وأمية بن أبي الصلت الذين استشهدا بعاد وثمود، كمثالين على البأس والقوة والمنعة.

وقد ورد ذكر قوم ثمود في القرآن، وأخبر أنهم كانوا ينحتون الجبال لتكون بيوتلهم، ويتخذون من سهولها قصورًا لهم، وهم من العرب البائدة، أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام نبيًا ورسولًا منهم، يدعوهم لعبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان، فاستجابوا لدعوة نبي الله صالح، ثم ارتد

---

[1] - [سورة الفجر آية 9]

أكثرهم عن دينهم ، وعقروا الناقة التي أرسلها الله لهم آية، وتحدوا صالحًا أن يأتيهم بالعذاب، ودبّر تسعة منهم مكيدة لقتل صالح وأهله، فأهلك الله الذين ظلموا من قوم ثمود، ونجى صالحًا والمؤمنين.

﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾: قَطَعُوه ونَحَتُوا فيه بيوتَهم. قال ابن عباس ﵄ : ينحتونها ويخرقونها . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد . ومنه يقال : مجتابي النمار . إذا خرقوها ، واجتاب الثوب : إذا فتحه . ومنه الجيب أيضا . وقال الله تعالى : (**وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين)**[1]. وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادي القرى . وكيف فعل بثمود قوم صالح الذين قطعوا الصخر بالوادي واتخذوا منه بيوتًا؟ أي ألم تر كيف فعل ربك بثمود الذين جابوا الصخر أي خرقوا ونحتوا، وليس بالمعنى العامي "أحضر" ، فجوب كما جاء في المقاييس:" الجيم والواو والباء أصلٌ واحد، وهو خَرْقُ الشيء. يقال جُبْتُ الأرضَ جَوْبا، فأنا جائبٌ وجَوّابٌ. ويقال:"هل عِندك جَائِبةُ خبرٍ" أي خبرٌ يجوب البلاد. والجَوْبَةُ كالغائط؛ وهو من الباب؛ لأنه كالخَرْق في الأرض. والجوْب: دِرعٌ تلبسُه المرأة، وهو مَجُوبٌ سمِّي بالمَصدر. والمِجْوَبُ: حديدةٌ يُجابُ بها، أي يُخْصَف. وأصلٌ آخر، وهو مراجَعة الكلام، يقال كلمه فأجابَه جَواباً، وقد تجاوَبا مُجاوَبة." اهـ

---

[1] – [الشعراء : 149] .

ولحد الآن يوجد قصر بالبتراء في الجبل، قاعة الملك حجمها ثلاثون متراً عمقها، وثلاثون متراً ارتفاعها، وثلاثون متراً عرضها، محصورة في الجبل، مكعب كامل ضخم، وعلى مدخل هذا القصر الأعمدة والتيجان والزخارف، ولم يوضع في هذا البناء حجر واحد، نحتٌ من الصخر، هذا شيء فوق طاقة الإنسان، فإذا دخلت إلى البتراء وتعمَّقت فيها، رأيت بيوتهم ومساكنهم وحماماتهم ونواديهم، وأماكنهم العامة ومدَّرجاتهم، فهؤلاء كانوا من الأقوام الشديدة ، وكانوا يعيشون في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم، ولكن على الرغم من ذلك أهلكهم الله بالصاعقة!

وتشير الدراسة إلى أن قوم ثمود خلفاء لقوم هود عليه السلام. وربما سُمي هؤلاء القوم باسم ثمود ، نسبة إلى الجد «ثمود بن عابر»، في حين يرى البعض الآخر أنها سُميت بهذا الاسم لقلة وجود الماء في أراضيها، فإذا قيل : «ثمد الماء ثمداً» أي قل الماء. وقد ترك لنا أهل ثمود نقوشاً قصيرة تدل على معرفتهم بالتجارة. وقد عثر على هذه النقوش في أماكن كثيرة. وهذا قد يشير إلى فترة اتصالاتهم التجارية. ويعتقد بعض العلماء الذين نشروا هذه الدراسة أن قبيلة ثمود كانت تسكن بـ«الحجر». وهو مكان يقع بين بلاد الحجاز والشام، ويوجد الآن بين الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية وشرق المملكة الأردنية . والحجر أساساً كلمة تُطلق على كل مكان أحاطت به الحجارة. وقد كان قوم ثمود قبائل متعددة، ولم يكونوا دولة مستقرة؛ لأن كل من كان يعيش في هذه المناطق في ذلك الوقت، كان عبارة عن قبائل مستقلة بعضها عن بعض تماماً؛ لذا يرى البعض أن

المكان الذي عاش فيه قوم أو قبيلة ثمود هي مدائن صالح بالسعودية ، لارتباط اسمها باسم النبي صالح ، وكثرة آثارها المنحوتة في الجبال. ولكن البعض الآخر يرى أن قوم ثمود عاشوا في بلدة «الخريبة» التي تقع على بعد نحو 15 كلم من مدائن صالح . كما تناولت هذه الدراسة ، أن رسالة صالح إلى قومه، مثله مثل بقية الرسل، تدعو لعبادة الله وحده لا شريك له، ولكن دون جدوى؛ إذ أصر قومه على موقفهم من الكفر؛ لذا عذبهم الله تعالى ، بإرسال صاعقة أهلكتهم جميعاً إلا من آمن منهم بدعوة سيدنا صالح عليه السلام . ومساكن عاد وثمود معروفة عند العرب ، ومنقولة بينهم أخبارها وأحوالها، ويمرون عليها في أسفارهم إلى اليمن وإلى الشام.

قال تعالى في سورة الشعراء: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ

الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)[1].

د - السر في اقتران عاد وثمود دون غيرهما من الأقوام الظالمة الطاغية:

يأتي في القرآن الكريم ذكر عاد وثمود مقترنين غالباً، ومما يمكن ذكره هنا

1 - ما ذكره الثعالبي في تفسيره قال: "وخص عادا وثمودا بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن وفي الحجر في طريق الشام".

2 – ما قاله ابن الجوزي في الوجيز: "وإنما خص القبيلتين لأن قريشا يمرون على قرى القوم في أسفارهم. فديار القبيلتين وآثارهما بمكان واحد وهو قريب من قريش، فكان التذكير بهما معا للاتعاظ والاعتبار، ولمشاهدة آثارهما الدالة على بطشهما وقوتهما، وأن ذلك لم يمنعهما من بطش الله وعقوبته. فلا ينبغي أن تغتر قريش ولا غيرها بالقوة والكثرة".

الصورة الثالثة للطغيان: صورة الطغيان بقوة القهر والبغي المتمثلة في فرعون:

1 – مواطن ورود قصة فرعون في القرآن:

وردت قصة فرعون في 27 سورة، فضلاً عن الإشارة إليها في ثنايا بعض السور الأخرى، وعرضتها الآيات مفصلة ومقتضبة صوراً لطغيان فرعون وضلالاته وبغيه وكفره.

---

[1] – [الشعراء: 141 - 159].

وهذه هي السور التي وردت فيها قصة فرعون هي : (1 - البقرة، 2 - آل عمران، 3 - الأعراف، 4 - الأنفال، 5 - يونس، 6 - هود، 7 - إبراهيم، 8 - الإسراء، 9 - طه، 10 - المؤمنون، 11 - الشعراء، 12 - النمل، 13 - القصص، 14 - العنكبوت، 15 - ص، 16 - غافر، 17 - الزخرف، 18 - الدخان، 19 - ق، 20 - الذاريات، 21 - القمر، 22 - التحريم، 23 - الحاقة، 24 - المزمل، 25 – النازعات، 26 - البروج، 27 - الفجر).

2 - الحكمة من تَكرار قصة فرعون في الكثير من السور

القرآن العظيم مشتمل على أروع أنواع البلاغة وأقوى تحديات الإعجاز ، وأنفع أساليب البيان. وتَكرار قصة فرعون في مواضع متعددة من هذا القبيل

أ - من ناحية البلاغة: إبراز المعنى الواحد في صور متعددة وأساليب متنوعة وتفنن شيق وألفاظ مختلفة رفيعة غاية في البلاغة.

ب – من ناحية الإعجاز: إيراد المضمون الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة واحدة منها أبلغ في التحدي. علماً بأن العرب في ذلك الوقت وصلوا إلى قمة التفنن في البلاغة ، وحازوا قصب السبق في الفصاحة، وملأوا الدنيا نثراً ونظماً.

ج - من ناحية البيان : تكرار القصة الواحدة يلفت الانتباه إليها ويشعر بالاهتمام بها. ويُمكَّن الاعتبار بها في النفس ويرسخها فيها على أساس أن ما تكرر تقرر.

د - تناسب كل سياق مع السورة : ومن الحكم أيضا لتكرار قصة فرعون في سور متعددة من حيث التفصيل والإيجاز والإشارة، تناسب كل سياق مع السورة التي ورد فيها من حيث الطول والقصر والإطناب والإيجاز إلى غير ذلك من الحكم الكثيرة الجليلة. والله تعالى أعلم.

3 - سياسات فرعون المتجددة:

لكي نبين ملامح الطغاة، ونتذكر بعض صور طغيانهم ووسائلهم ، نستعرض عدداً من الأمور التي نستخلصها من الآيات الكريمة التي وردت في معرض الحديث عن فرعون وقومه ، و هذه مجموعة من سياسات فرعون التي تتجدد على يد كل مستبدّ من خلال آيات القرآن الكريم التي عالجت قصة فرعون:

أولاً: الحكم بغير ما أنزل الله:

فكل طاغية تجده يحكم بغير ما أنزل الله عز وجل، ويجعل من نفسه معبوداً من دون الله عز وجل يتحكم بالناس، ويأمرهم أن يطيعوه، ويشرع لهم ما يراه متفقاً مع أهوائه ومصلحته، ويدعي أنه الخير لهم. قال تعالى: **(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَ إِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ)**[1]. وقال تعالى في سورة الزخرف: **(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ. أَمْ**

---

[1] – [القصص:38]

أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ)[1]. وهذا الادعاء ناتج عن الغرور بما أعطاه الله من الملك والمال والقوة والنعيم، والحاشية والأتباع. ولكن ذلك مقترن أيضاً بخضوع الناس للطاغية، وسكوتهم عن مظالمه، وخوفهم من سطوته وجبروته، وانكبابهم على الأمور المادية، والمنافع الدنيوية، ونسيانهم لآخرتهم مما يجعلهم مستعبدين للظالم، وأتباعاً للطاغية، كما فعل أتباع فرعون وقومه.

ثانياً: الافتخ ار بما يملك:

الطاغية يفتخر بما يملك من مال، أو قوة، أو ملك، أو تقدُّم مادي، وينسى مصدر ذلك كله، وينسبها لنفسه معتمداً على حب الناس لمتاع الدنيا، ولذلك افتخر فرعون بأنه يملك الأرض الخضراء، ولديه الماء والأنهار والسلطان، قال تعالى في سورة الزخرف: **(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ)**[2].

وعندما أراد أن يقنع قومه بأنه المعبود لهم من دون الله، وأن دعوة موسى عليه السلام لا تنفعهم ولا تفيدهم، استخدم هذا الأمر الذي يملك أفئدتهم، ويسد عليهم طريق الهدى فقال تعالى في سورة الزخرف على لسان فرعون: **(فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)**[3]، والناس المضللون الذين استعبدهم الطغاة وأذلوهم حتى

---

[1] – [الزخرف:51-52]

[2] – [الزخرف:51].

[3] – [الزخرف:53].

أفسدوا فِطَرَهم، يستجيبون لمثل هذه المغريات، ويذعنون لحواسهم القاصرة، وينكرون ما لا تصل إليه حواسهم، ويعطلون عقولهم.

ثالثاً: إنكار الغيبيات:

الطغاة ينكرون الغيبيات، ويعادونها ؛ لأن ذلك يتعارض مع ما يريدون، ولأن إيمان الناس بالغيب يحررهم من أسر العبودية لجبروت الظالمين، ويفسح أمامهم النظر في ملكوت الله عز وجل، فيعرفون أن هناك مالكاً قديراً، وأن هؤلاء الطغاة بشر مخلوقون مثلهم، انحرفوا عن شرع الله وتجبروا وظلموا، وأنهم سوف يمضون بعد حين ليواجهوا مصير العذاب ؛ لأن الله وحده يملك المصير، ويملك الموت والحياة. قال تعالى في سورة آل عمران: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ)**[1].

رابعاً: التكذيب بآيات الله ومعاداة الرسل

الطاغية يكذب بآيات الله، ويعادي الرسل والدعاة وأولياء الله عز وجل، وينكل بهم، ويرميهم بشتى التهم والأباطيل ، قال تعالى في سورة يونس : **(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا : إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ. قَالَ مُوسَى : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ**

---
[1] – [آل عمران:10-11].

السَّاحِرُونَ)[1]، ولا تنفع الوسيلة الليّنة، والخطاب الشفوق مع الطاغية ؛ لأنه متجبر لا يصغي لغير نفسه. فها هو موسى و هارون عليهما السلام يخاطبان فرعون بالخطاب اللين الرشيد، ولكنه تجبر وتكبر، وأرعد وأزبد، وهدد كل الخارجين على سلطانه. قال تعالى في سورة طه: **(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)**[2]، ثم إن الطاغية لا يستمع للبرهان القاطع، ولا يصغي للحجة المقنعة ، ولا يفهم معنى الآيات الدالات والمعجزات الباهرات، بل يقابل ذلك بالتجبر، والتهديد، ورمي أولياء الله بشتى التهم ، كما فعل فرعون عندما حاجَّه موسى وبيَّن له أن الله المعبود حقيقة هو الخالق المدبِّر، قال تعالى في سورة طه: (**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**)[3]، وقال تعالى في سورة الشعراء: (**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**)[4]، وقال تعالى في سورة الشعراء: (**قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**)[5]، وقال تعالى في سورة الشعراء: (**قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ**)[6]، وقال تعالى في سورة الشعراء: **(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)**[7]. فماذا

---

1 – [يونس:75-77].

2 – [طه:43-44].

3 – [طه:50]

4 – [الشعراء:23].

5 – [الشعراء:24].

6 – [الشعراء:26].

7 – [الشعراء:28].

كان رد فرعون عندما واجهه موسى عليه السلام بهذه الحجج التي لا يملك ردها ؟ لقد هدده وتوعده فقال كما جاء في سورة الشعراء : **(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ)**[1].. ولكن موسى لم يَخَفْ هذا التهديد، بل قدَّم لفرعون الآية تلو الآية ، لعله يخشى ويعود إلى الحق، قال تعالى في سورة الشعراء: **(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)**[2]. وظلت الآيات تترى واحدة إثر أخرى، والطاغية لا يستمع ولا يستجيب حتى أهلكه الله وقومه الظالمين، ونجَّى موسى وقومه المؤمنين.

خامساً: الطاغية يلجأ إلى كل المحاولات الظالمة للتنكيل بالمعارضين والبطش بالدعاة إلى الله:

الطاغية لا يمنعه شيء من ارتكاب كل جريمة مهما بدت منافية للخلق والمنطق، قال تعالى في سورة فاطر: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ، وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ**

---

[1] – [الشعراء:29].

[2] – [الشعراء:32-33]

مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ)[1]،

سادسا: أتباع الطاغية ومو اقفهم في تزيين الباطل للناس:

لكل طاغية أعوان:

1 - منهم من يعين بالرأي للتضليل والإفساد وتزيين الباطل للناس وإنفاذ رغبات الطاغية مثل (هامان) . قال تعالى في سورة القصص: **(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)**[2]، وقال تعالى: **(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَ إِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ)**[3]. ومع هذا الوزير الطاغية أيضاً حشد من الجنود والأعوان والأتباع التي تنكل بالناس، وترصد حركاتهم، وتبطش بهم، وتتعالى على الناس بما لديها من قوة وسلاح وسلطان، قال تعالى في سورة القصص: **(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ)**[4].

ولكن الله لهؤلاء بالمرصاد: للطاغية وأعوانه، ولكل من يشايعه ويخضع له، قال تعالى في سورة القصص: **(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ**

---

1 – [غافر:23- 26].

2 – [القصص:8].

3 – [القصص:38].

4 – [القصص:39].

لاَ يُنصَرُونَ. وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ)[1]. وهذه الآيات تضع للناس معالم الطريق في الحياة ، كي لا يكون لهم حجة في اتباع الظالمين، والخضوع للطغاة والجبارين، أياً كانت الأسباب والحجج؛ لأن في ذلك إنكاراً لقدرة الله وألوهيته وربوبيته، وتكذيباً لما عنده في الدنيا والآخرة ؛ فالمؤمن لا يخشى إلا الله، ولا يخضع إلا لسلطانه، ولا يرضى بغير الحق، ولا يشايع الباطل والظلم والطغيان حتى لا يرد مورد الطغاة ، كما حل بفرعون وقومه. ولذلك ضرب الله لنا أمثلة رائعة من إنكار المنكر والتبرؤ من الطغيان والطاغية والخروج عن طغيانه، وعدم الاكتراث بما يحل بالمنكرين والمتبرئين من أذى في الحياة ؛ لأن ما عند الله خير وأبقى. فهذه امرأة فرعون وهي أقرب الناس إليه تتبرأ منه، وتكشف باطله ، وتدعو الله عز وجل أن يبدلها الجنة، ويورثها المغفرة، بدلاً مما هي فيه، لم تخش جبروت الطاغية، ولم تضللها أكاذيبه، ولم تغرها الأبهة والملك والجبروت والزينة في الدنيا ، قال تعالى في سورة التحريم: **(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ)**[2].

2 - ومنهم من يعين بالمال، ويستغل ويزداد كنزاً وغنى من المال (كقارون).

---

[1] – [القصص:40-42]

[2] – [التحريم:11].

سابعا: التجبر والتكبر والعلوّ السلبي الذي يصاحبه الطغيان والاستبداد والاستخفاف بالشعوب.

*قال تعالى: (**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**).

* قال تعالى: (**إلى فرعون إنه طغى**)،

* قال تعالى: (**واستخف قومه**).

هذه الآيات تدل على التجبر والتكبر والعلوّ السلبي الذي يصاحبه الطغيان والاستبداد والاستخفاف بالشعوب واحتقارهم واستصغار حرياتهم وحقوقهم ودمائهم. وهذه لا تعتبر سياسة لفرعون بقدر ما تعتبر تجسيدا لنظرته لنفسه وللشعب، ونشأة الظلم نفسيا لديه.

ثامنا: سياسة فرق تسد:

قال تعالى في سورة القصص: (**وجعل أهلها شِيَعاً يستضعف طائفة منهم**): هذه الآية تؤكد على نظرية "فرّق تسُد"، فكل مستبد يسعى إلى التفرقة بين الشعب وجعلهم شيعا وجماعات وقوى متصارعة، سواء بزرع موازين الولاء للقبيلة، أو العرق والجنس، أو للجماعة والحزب والفرقة، كما يستضعف طائفة منهم. هذه الطائفة المستضعَفة، هي التي يخشى المستبدّ من أفكارهم، أو قوة عزيمتهم، أو شجاعتهم، وقوة تمسّكهم بالفطرة والحق وقيم العدل. يستضعفها لأنها تجسّد هلاكه ونهاية ظلمه، ومصرع جبروته.

تاسعا: طبيعة الاستضعاف الذي يلحق الطائفة التي يخشاها من الشعب.

قال تعالى في سورة القصص: (**يذَبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين**)، وقال سبحانه وتعالى:(**يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم**)، هذه الآيات يوضح لنا الله فيها طبيعة الاستضعاف الذي يلحق طائفة من الشعب، والذي يكون بممارسة أبشع وسائل التعذيب والقتل والترهيب. هذه الجرائم التي يرتكبها الفرعون، يجرّمها الله بالقول فيقول سبحانه: (**إنه كان من المفسدين**)، ويبرز الظلم العظيم الذي يلحق بالشعوب جرّاء هذه المجازر، قال تعالى: (**وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**).

عاشرا: سياسة التضخيم من أخطاء بسيطة، والتغطية والشرعنة للجرائم الفرعونية المستبدّة:

قال تعالى في سورة غافر: (**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ**)[1]، وقال تعالى في سورة الشعراء: (**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**)[2]، وقال سبحانه: (**إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ**

---

1 - [غافر: 26].

2 - [الشعراء: 19].

الْمُصْلِحِينَ)[1]، هذه الآيات تبيّن سياسة التضخيم من أخطاء بسيطة، والتغطية والشرعنة للجرائم الفرعونية المستبدّة. ففرعون الذي كان يرتكب الجرائم والمجازر، كان يغطّي على جميع جرائمه، ويخاطب قومه عن موسى عليه السلام، الذي قد يظهر الفساد والظلم، كما وصف قتل موسى للرجل دون قصد منه بالفعلة العظيمة الشنيعة، قال تعالى: (**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ)**[2]، التي أصبح من خلالها كافرا بالإحسان والجميل. كما يخاطب أحد رجال فرعون موسى عليه السلام في موقف آخر ، (**إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)**[3]، وهذا كلّه يندرج أيضا في سياسة تجريم الشيء وتكرار ذلك حتى يصبح جريمة فعلا من خلال الإعلام الفاسد.

إحدى عشر: محاولات إظهار المستبدّ نفسه بمظهر الخائف على شعبه من الفساد والظلم.

قال تعالى في سورة غافر: (**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)**[4]، وقال سبحانه في سورة طه: (**وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)**[5]، وقال سبحانه في سورة غافر: (**إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي**

---

[1] – [القصص: 19].

[2] – [الشعراء: 19].

[3] – [القصص: 19].

[4] – [غافر: 29].

[5] – [طه: 63].

الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[1]، وقال سبحانه في سورة الأعراف: **(إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)**[2]، وقال سبحانه في سورة الفرقان: **(إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)**[3]، يتضح من هذه الآيات، محاولات المستبدّ إظهار نفسه بمظهر الخائف على شعبه من الفساد والظلم، وبمظهر الذي يحمي الثقافة والدين والقيَم، والحارس عليها بالإرشاد والهداية، وذلك كله باستعمال الإعلام، وكَيْل الاتهامات.

فلتهم فرعونُ موسى عليه السلام بالمتاجرة بالدين ، قال تعالى: **(أن يبدّل دينكم)**، ثم اتهمه بالمكر والخداع والتآمر، قال تعالى: **(إن هذا لمكر)**، وقال سبحانه: **(إن هذا إلا إفك)**، ثم اتهمه بإدارتهم لمؤامرة دولية والتخابر مع دول أجنبية أو جماعات عالمية تخطّط لهذه المؤامرة، قال تعالى: (**وأعانهم عليه قوم آخرون)**. كما أن من صميم الاتهامات، تحقيق أهداف دنيوية، في حين نجد كلّ نبي بعث، لا يريد أيّ أجر دنيوي، قال تعالى: **(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)**[4]، وموسى عليه السلام بعثه الله بهدف إنهاء استبداد

---

[1] – [غافر: 26].

[2] – [الأعراف: 123].

[3] – [الفرقان: 4].

[4] – **[الشعراء: 109].**

فرعون، والتمكين للمستضعفين، قال تعالى: (**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ**)[1].

اثنا عشر: الحملة الإعلامية الشّرسة الفرعونية على موسى عليه السلام، لتشويه صورته ووقف اتّباعه من قبل الناس

قال تعالى: (**إفك افتراه**)، وقال سبحانه: (**إن هذا إلا مكر**)، وقال سبحانه: (**إن هذا لساحر مبين**)، وقال سبحانه: (**إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا**)، وقال سبحانه: (**أجئتنا لتُخرجنا من أرضنا بسحرك**)، هذه الآيات وغيرها ترسم الحملة الإعلامية الشّرسة الفرعونية على موسى عليه السلام، وذلك لتشويه صورته ، ووقف اتّباعه من قبل الناس. والتشويه تضمّن الاتهام بالسحر والمكر ، والافتراء والكذب، وتبديل الدين ، والإخراج من الأرض ، والتآمر ، والمتاجرة بالدين ، والفساد، وذلك لتسهيل الفتك به، وإضفاء المشروعية على كل ما يُرتكب في حق موسى عليه السلام، و إقناع الشعب بذلك.

ثلاثة عشر: فرعون مصر وفراعنة العصر

بعد هذا العرض للطاغية والطغاة مُمَثَّلاً بفرعون وقومه ، يتبين لنا أن "الفساد يصيب تصورات الناس ، كما يصيب حياتهم الاجتماعية ، حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد من دون الله، وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام كانت عبوديتهم لله

---

[1] – [القصص: 5].

وحده: عقيدة وعبادة وشريعة، وما تحرر الناس قط إلا في ظلال ربوبيته الواحدة "[1]. إن نسيان ذلك من الناس يضللهم في الحياة ، فيجعلهم أشياعاً للباطل ، وجنوداً للطغاة الظالمين الذين لا يكفُّون عن تسخيرهم لغير ما أراد الله ، وامتلاك إرادتهم وقلوبهم وعقولهم. إن أصناف الطغيان كثيرة، وأنواع الطغاة متعددة ؛ فإذا كان بالأمس فرعون ، ففي الحياة كثير من أصناف الفراعنة، "وعلى كل ما عُرف من طغيان فرعون ، فقد كان في تصرفه هذا أقل طغياناً من طواغيت كثيرة في القرن العشرين ، في مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية رب العالمين، وتهديد لسلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة"[2]. فهل يستيقظ الناس وهم يعيشون محنة من أقسى ما عرف العالم الإسلامي من المحن، ويمرون في حنايا فتنة كبيرة ، نسأل الله عز وجل أن يجعلها نصراً للحق والإسلام والمسلمين؟ وكل ذلك بفعل الطغيان، وتصرفات طاغية جبار دفعه طغيانه إلى ارتكاب أبعد صنوف الشرور وأقسى أنواع المظالم.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠﴾[3].

﴿وَفِرْعَوْنَ ﴾. هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام،

---

1 - [في ظلال القرآن، لسيد قطب، 1345/3.]

2 - [في ظلال القرآن، لسيد قطب، 1348/3.]

3 - [سورة الفجر آية 10].

﴿ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾. الأوتاد: المباني العظيمة الثابتة، والجُيُوشِ الكثيرةِ التي تَشُدُّ مُلْكَه.

وكيف فعل بفرعون مَلِك "مصر"، صاحب الجنود الذين ثبَّتوا مُلْكه، وقوَّوا له أمره؟ ونلاحظ هنا أن الله عز وجل عندما تكلم عن هلاك فرعون تكلم عن هلاكه هو – وآله تباعا- وليس عن هلاك وتدمير الحضارة المصرية! لأن العذاب الذي خص لفرعون كان عذابا مسلطا على أفراد ، وليس على المباني كما كان مع عاد وثمود!

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾[1].

أولا: مدلول الطغيان في سورة الفجر

﴿ طَغَوْا۟ ﴾. الطغيان: تجاوز القدر في الظلم والعتوّ.

يقول اللغويون عن هذه المادة ما يلي: طَغَا يَطْغَى، ويطغو طُغياناً: جاوز الحد، وكل مجاوز حده في العصيان طاغٍ. وعن الليث أن الطاغية: الجبار العنيد. وعن ابن شميل: أنه الأحمق المستكبر الظالم [2]. وورد أن الطغيان معناه: مجاوزة القدر والغلو في الكفر، والإسراف في المعاصي[3].

---

[1] - [سورة الفجر آية 11]

[2] – لسان العرب، 15/7 9، طبعة دار إحياء، بيروت.

[3] – القاموس المحيط، 1684، ط 1، 1406هـ 1986م، مؤسسة الرسالة بيروت.

1 - آفة الطغيان في الأمم:

الطغيان آفة من الآفات التي تنزل بالأقوام والشعوب ، فتدمر كيانها، وتهلك أهلها، وتأتي على الأخضر واليابس فيها، وحين يزداد الطغيان بين الناس، وتستشري شروره ، ثم يركن الناس إلى الطغاة، ويستمرئون الخضوع والاستكانة لمظالمهم وطغيانهم، يعمهم الله بالعذاب، ويحاسبهم على ذلك محاسبته للطغاة أنفسهم. ولقد كان فرعون مثلاً صارخاً للطاغية المتجبر، وكان قومه صورة للأقوام التي خضعت وتابعت الطاغية، ووصل الأمر بفرعون إلى ادعاء الألوهية والاستخفاف بعقول الناس، والإعراض عن كل الآيات التي جاءته من الله ، حتى أهلكه الله وقومه.

وأمرُ فرعون مثلٌ لكل طاغية يجاوز الحد في الظلم والتجبر والاستبداد والمعصية، والاستخفاف بعقول الناس وإرادتهم ومصالحهم، وكلما أنس منهم السكوت على ظلمه، والخضوع لبغيه وعدوانه ، ازداد تجبراً وتمرداً، حتى يصل إلى التألُّه، وادعاء الإرادة المطلقة في مصائر الناس من حوله.

2 - القرآن يفضح الطغاة:

فرعون في التاريخ المصري ، رجل عاتٍ ، كانت الأمة المصرية تدين بعبادته ، وتذعن لقداسته، وكان الملوك الفراعنة في قديم الزمان يحيطون أنفسهم بهالة من التقديس، ويضعون مكانتهم في إطار من الألوهية، لا جهلاً منهم بأنهم أناس لا يختلفون عن غيرهم، ولكنهم يفعلون ذلك تمويهاً على العامة

حتى يأمنوا غائلة الثورات من الذين يطمعون في تبوُّ ء عرش الملك[1]. وحيث وردت قصة فرعون في عدد كبير من السور والآيات ، وفُصِّلت ذلك التفصيل في مناسبات كثيرة، فإن الوقوف عندها سوف يعطي القارئ المسلم ملامح ذلك الطاغية، وصور ذلك الطغيان ، لتكون مَعْلَماً له في معرفة الصور المشابهة في كل عصر ومصر، مهما اختلفت الألوان، وتغيرت العناوين والشعارات؛ لأن الله عز وجل لم يقصَّ على عباده المؤمنين إلا لكي يتعظوا ويعتبروا ويتدبروا أمرهم، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه الأقوام، وحتى لا ينالهم من الله العذاب. قال تعالى في سورة طه: **(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً)**[2]، وقال تعالى في سورة يوسف: **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ)**[3].

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ١٢﴾[4].

ثانيا: الفساد والإفساد والمفسدون في القرآن

أ - المعنى اللغوي للفساد

[1] – [قصص الأنبياء، ص 182، عبد الوهاب النجار، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.].

[2] – [طه:99-100].

[3] – [يوسف:111].

[4] - [سورة الفجر آية 12]

1 - قال ابن منظور في لسان العرب: (الفساد نقيض الصلاح... وتفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام... واستفسد السلطان قائده إذا أساء إليه حتى استعصى عليه، والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح)[1].

2 - وقال الراغب الأصبهاني: (الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً)[2]، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستفادة.

والإفساد: فعل ما به الفساد، والهمزة فيه للجعل، أي: جعل الأشياء فاسدة، والفساد أصله تحول منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملاً على مضرة وإن لم يكن فيه نفع من قبل. يقال: فسد الشيء بعد أن كان صالحاً، ويقال: فاسد إذا وجد فاسداً من أول وهلة، وكذلك يقال: أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه، ويقال: أفسَدَ إذا أوجد فساداً من أول الأمر[3].

ب - مقياس صلاح الأشياء وفسادها

إذا حللنا ما أورده علماء اللغة، يمكن أن نخلص إلى أن الأشياء لها وظائف تؤديها، ومهامّ تقوم بها، وأدوار متوقعة منها، وهذا هو صلاحها، فعند

---

[1] – (لسان العرب، لابن منظور، 3/ 335.).

[2] – (معاني القرآن، للأصبهاني، 379.).

[3] - [تفسير ابن عاشور، التحرير والتنوير (284/1).]

وجود خلل أو نقص في أداء الشيء لهذه الوظيفة أو المهمة أو الدور، يمكن أن نقول عنه: إنه فسد، وهذا الخلل ناتج من خروج الشيء نفسه عن وضعه المتعارف عليه، فهو خلل أو خروج عن الاعتدال والاستقامة من داخله، أي إن لكل شيء مهمته المناسبة له، ففساد الآلة بخرابها، وفساد الجسم بمرضه وضعفه، وفساد الثمرة بفقدان طعمها، وفساد الدولة بنكوصها عن أداء مهماتها، وذلك بعدم انسجام أعضاء مجتمعها، وتنافر مجاميعه، وفقدان الأمن والوحدة الاجتماعية اللذين يحفظان تماسكه.

إنكار القرآن على كل أنواع الفساد.

يتحدث القرآن الكريم كثيراً عن الإفساد في الأرض، وينعى على المفسدين فيها، أو يبغون فيها الفساد، أو يعينون عليه، ذلك أن الله - تعالى - خلق الأرض صالحة، وأودع فيها البركة الكافية من فوقها فقال سبحانه في سورة فصلت: (**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**)[1].

ولهذا خشيت الملائكة من إفساد الأرض عندما أخبرها الله - سبحانه - بأنه جاعل في الأرض مخلوقات من البشر يخلف بعضهم بعضاً فيها، فقال سبحانه في سورة البقرة: (**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض**

---

[1] - [فصلت، 9 - 10].

خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون)[1].

ج - أقسام الفساد في القرآن:

من القراءة الأولية لجميع الآيات التي تكرر فيها الحديث عن الفساد والإفساد والمفسدون في الأرض نستنبط أن للفساد أقسام:

القسم الأول للفساد: الفساد العقدي:.

من خلال آيات الذكر الحكيم، يمكن أن نضع تعريفا مبسطا للفساد العقدي بأنه:

1 - الشرك بالله: و لأن هذا الكون لا يتحمل أن يكون فيه إلهين اثنين ، ولو فرض وحدث ذلك، لفسد الكون بما فيه، كذلك فإن عقيدة الإنسان، لا تقبل وجود إله معبود إلا الله، ولو اتخذ الإنسان إلها آخر مع الله لفسدت عقيدته بالشرك، قال تعالى في سورة الأنبياء:**(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)**[2]، والشرك لا يغفره رب العزة أبدا، كما قال جل وعلا في سورة النساء:**(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى**

---

[1] – [البقرة، 30].

[2] – الأنبياء:22

إِثْماً عَظِيماً)[1] ، وهذه الآية العظيمة تدخلنا لمعنى آخر متداخل مع معنى الفساد العقدي، وهو الافتراء على الله، والافتراء على الله جل وعلا نوعين:
*إما أن تشرك بالله، أي تتخذ إلها مع الله كما وضح في الآية (**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً**).
*وإما أن يكون الافتراء على الله بتكذيب آياته، أو بالكذب عليه جل وعلا بتلفيق أحاديث وأكاذيب لم ينزل بها سلطانا، وتنسبها لله جل وعلا، يقول تعالى في سورة الأنعام:(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**)[2]، وهذه الآية تضيف لنا معنى مرادفاللفساد والافتراء، وهو الظلم، لأن ربنا جل وعلا يصف من يفتري عليه الكذب أو يكذّب بآياته، بأنه أظلم الناس ، هذا التداخل والتناغم والتواصل بين آيات القرآن الكريم، يؤكد لنا ولكل مؤمن بالله وبقرآنه، أن القرآن الكريم لا يمكن فهمه إلا من خلال آياته وكلماته، لكن أولا، لابد أن تتوافر لدى الباحث النية الصادقة الخالصة، وأن يُسلم نفسه وقلبه وعقله للقرآن وآياته ومفرداته، ويسير دبر الآيات، وألا يفرض عليها وجهة نظره.
2 - الكفر بآيات القرآن الكريم: يقول تعالى في سورة يونس: **(وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)**[3].

---

[1] – النساء:48.
[2] – الأنعام:21.
[3] – يونس:40.

3 - الكفر والصد عن سبيل الله: فساد في الأرض يستحق فاعله عذابا فوق العذاب، قال تعالى في سورة النحل: (**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**)[1] ، ويقول تعالى في سورة آل عمران: (**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**)[2] ،

القسم الثاني للفساد : الفساد في الأرض:

وله صور مختلفة:

*(فساد يرتبط بمحاربة رسل الله وقتلهم بغير حق، وقتل كل من يأمر بالقسط من الناس ، والصد عن سبيل الله).

*و(فساد يرتبط بالتعاملات اليومية بين البشر ، والسعي في الأرض وإفسادها بالعبث في ميزان الطبيعة ، أو الاعتداء على قوم بيننا وبينهم ميثاق وعهد).

1. الصد عن سبيل الله ومحاربة الأنبياء والمرسلين والمؤمنين الصالحين ودعاة الإصلاح في كل زمان ومكان:

يقول تعالى في سورة الأعراف: (**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ**

---

[1] – النحل:88.

[2] – آل عمران:62 - 63.

وَ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)[1] ، ويقول سبحانه في سورة الأعراف: **(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)**[2]، ولمزيد من التوضيح في هذا المقام نذكر آية قرآنية عظيمة، تبين ملامح الفساد لمن يكفرون بآيات الله، أنهم يقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، قال تعالى في سورة آل عمران: **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)**[3].

2- الغش في الكيل والميزان، وخداع الناس بالباطل، من أجل مكاسب دنيوية:

يقول تعالى في سورة الأعراف: **(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)**[4]، ويقول سبحانه في سورة هود:**(وَيَا**

---

[1] – الأعراف:85 ، 86.

[2] – الأعراف:103.

[3] – آل عمران:21.

[4] – الأعراف:85.

قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)[1].

3. نقض العهد مع الله وقطع الأرحام:

قال تعالى في سورة البقرة: (**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ**)[2]، وهنا تداخل بين الفساد في الأرض، ونقض العهد والميثاق الذي يترتب عليه اللعنة و الخُسران في الآخرة، أو سوء الدار في الآخرة، قال تعالى في سورة الرعد: (**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**)[3]، وتكرر في القرآن الحديث عن قطع الأرحام والفساد في الأرض، في قوله تعالى في سورة محمد:(**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**)[4].

4. الاعتداء على قوم بيننا وبينهم ميثاق:

ربنا جل وعلا يجعل الاعتداء على القوم الذين بيننا وبينهم ميثاق، فتنة وفساد كبير، ويتضح هذا في سورة الأنفال في قوله تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا**

---

[1] – هود:85.

[2] – البقرة:27.

[3] – الرعد:25.

[4] – محمد:22.

أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ، ثم يقول جل وعلا محذرا في الآية التالية: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)**[1] ، ويؤكد هذا قوله جل وعلا في أمره للمؤمنين ألا يبدؤوا بالاعتداء على أحد حتى في الحرب، يكون الدفاع برد الاعتداء فقط، يقول تعالى في سورة البقرة: **(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)**[2].

د - مراتب إيقاع الفساد من قبل البشر في القرآن:

المتأمل في حديث القرآن عن الفساد والفاسدين، أو الإفساد والمفسدين، سيجد أن إيقاع الفساد من قبل البشر يأتي على مراتب خمسة:

المرتبة الأولى من الإفساد: إفساد الإنسان نفسه:

بالإصرار على المعاصي، وما يترتب عليها من مفاسد أخر. فكل معصية إفساد، قال - تعالى - عن فرعون في سورة يونس: **(آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)**[3]، وكل تولٍ، عن الحق إفساد، قال - تعالى – في سورة آل عمران: **(فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين)**[4]، وكل إعراض

---

[1] – الأنفال:72 - 73.

[2] – البقرة:194.

[3] – [يونس، 91].

[4] – [آل عمران، 63]

عن الإيمان إفساد، قال - تعالى -: **(ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين)**[1].

المرتبة الثانية من الإفساد: ما يلحق بالذرية والأبناء والأتباع في اقتدائهم بالكبار المتبوعين في مساويهم.

ولهذا قال نوح - عليه السلام – كما جاء في سورة نوح: **(إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)**[2].

المرتبة الثالثة من الإفساد : إفساد الدائرة المحيطة بالمفسدين:

عن طريق بث أخلاق وصفات ودعاوى الفساد، وذلك بالإسراف في المعاصي حتى يتعدى أثرها إلى غير أصحابها، ولهذا قال نبي الله صالح - عليه السلام - ناهياً قومه عن التأثر بالمفسدين كما جاء في سورة الشعراء: **(ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون)**[3].

المرتبة الرابعة من الإفساد : إفساد الدائرة الأوسع في المجتمعات:

عن طريق إشاعة الأمراض الاجتماعية المفسدة بواسطة المضلين، مثل إثارة فتن الشبهات والشهوات، والوقوف في وجه المصلحين، وإحداث

---

1 – [يونس، 40].

2 – [نوح،27].

3 – [الشعراء، 152].

العقبات في طرقهم، زعماً بأنهم يقفون ضد مصالح الناس. قال - تعالى – في سورة البقرة: **(وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)**[1]، وقال الملأ المضلون من قوم فرعون كما جاء في سورة الأعراف: **(أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك)**[2].

المرتبة الخامسة من الإفساد: الإفساد الناشئ عن فساد الحكام والقادة والزعماء:

و هذا هو الفساد الأكبر، لأن الكبراء إذا فسدوا في أنفسهم، فإنهم ينشرون الفساد بقوة نفوذهم واستخدام سلطاتهم وقوتهم، وقد ذكر القرآن عن بلقيس قولها كما جاء في سورة النمل: **(إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون)**[3]. وكثيراً ما يزعم الطغاة المتكبرون، أن المصلحين هم أصحاب الفساد. كما قال فرعون عن موسى - عليه السلام – كما جاء في سورة غافر: **(إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)**[4]. هذا بالرغم من أن فرعون نفسه كان مكثراً من الإفساد بكل أنواعه، ولا تشفع له الأبراج العالية، والأصنام المنصوبة، والقبور المشيدة فيما يطلق عليه "الحضارة الفرعونية"، فإنها

---

1 – [البقرة، 11].

2 – [الأعراف، 127].

3 – [النمل، 34].

4 – [غافر، 26]

جميعاً شواهد على استبداد وسيطرة وطغيان الفراعين، الذين كانوا يطمعون أن ينقلوا معهم الثروات المسروقة من الشعوب المستضعفة إلى قبورهم. قال - تعالى – في سورة الفجر: (**وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد**)[1]، وقد وصف القرآن فرعون بالعلو والإفساد في الأرض، فقال سبحانه في سورة القصص: (**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، إنه كان من المفسدين**)[2]. ومثلما كان فرعون، مفسداً بنفوذه السياسي والعسكري، فقد كان قارون مفسداً بنفوذه المالي الاقتصادي، وقد كان قادراً على استعمال أمواله في الإصلاح في الأرض، ولكنه أبى إلا أن يستعمل نعمة الله في محاربة الله، وقد قال له الناصحون من قومه كما جاء في سورة القصص: (**ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندي**)[3].

وقد أوسع المتعالون من بني إسرائيل الأرض فساداً، فكلما زاد علوهم زاد فسادهم. قال - تعالى – عنهم في سورة الإسراء: (**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً**)[4]، وكثر فسادهم وإفسادهم حتى صار الإفساد ديدنهم، وصار طبيعة فيهم، حتى إنهم لا

---

1 – [الفجر، 10- 12].

2 – [القصص، 4].

3 – [القصص، 77].

4 – [الإسراء، 4].

يشعرون بذلك. قال - تعالى – في سورة البقرة: **(وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)**[1]. ولم يفلح معهم العلاج، حتى الوحي المتنزل من السماء لم يمنعهم من الإفساد، بل كانوا يوغلون في الطغيان حتى فيما بينهم، فصاروا ميؤوساً من صلاحهم، واستحقوا أن يكونوا الأمة المغضوب عليها إلى يوم القيامة بسبب فسادهم وإفسادهم. قال - تعالى – في سورة البقرة: **(وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين)**[2].

والفساد في بني إسرائيل لم يكن على مستوى الساسة والقادة والزعماء فقط، بل وصل إلى من يُفترض أنهم يقفون في وجه الفساد إصلاحاً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، فقد سكت علماء الضلالة فيهم عن إنكار المنكر. قال - تعالى – في سورة المائدة: **(وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يفعلون. لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يصنعون)**[3].

إن تلك المراتب الخمس للإفساد في الأرض، قد أحدثها ويحدثها البشر على كوكب الأرض، فالناس لا غيرهم من المخلوقات هم الذين ملئوا الأرض

---

1 – [البقرة، 14].

2 – [البقرة، 64].

3 – [المائدة، 62 - 63].

بالفساد حين ضلوا عن دين الله عبر العصور، أما بقية مظاهر الحياة على الأرض فإنها تتأثر بفساد المفسدين من البشر تبعاً. قال - تعالى – في سورة الروم: (**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**)[1].

هـ - سنة التدافع في الأرض بين المصلحين والمفسدين:

إن الصراع الواقع على ظهر الأرض منذ بدأت عليها الحياة البشرية، إنما هو صراع بين المصلحين والمفسدين، والعاقبة فيه لأهل الصلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى في سورة القصص: (**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين**)[2].

وكما للمصلحين طرق ومناهج للإصلاح، فإن للمفسدين سبل وطرائق للإفساد.

إن أثر الفساد والإفساد ليس له حدود لو سارت الأمور على مقتضى أهواء المفسدين، فالكون كله يفسد لو سارت أموره بحسب أهواء أهل الفساد قال - تعالى – في سورة المؤمنون : (**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن**)[3]، ولو لم يقف المصلحون في وجه المفسدين، لعم الفساد أرجاء الأرض، ولشمل الضلال كل أطرافها، ولكن من رحمة الله أنه يدفع فساد المفسدين بجهاد المصلحين، قال تعالى في

---

1 – [الروم، 41].

2 – [القصص، 83].

3 – [المؤمنون، 71].

سورة البقرة: **(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين)**[1].

إن مسؤولية المصلحين عظيمة، فواجبهم أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ضد المفسدين، فالمفسدون مهما تباعدت ديارهم، واختلفت ألوانهم وألسنتهم، فإنهم جبهة واحدة وصف واحد ضد الإصلاح والمصلحين. وما لم يكن للمصلحين صف واحد ضدهم فالفساد سيظل يكبر ويكبر حتى لا يستطيع أحد أن يقف أمامه. قال - تعالى – في سورة الأنفال: **(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)**[2].

إن الأمل الوحيد في إنقاذ الأرض من المفسدين في كل الأزمنة والأمكنة، يكمن في قيام أهل الحق والإصلاح بمسؤولياتهم، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وجهاداً في سبيل الله، قال تعالى في سورة هود: **(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، و اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون. ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)**[3].

---

[1] – [البقرة، 251].

[2] – [الأنفال، 73].

[3] – [هود، 116- 119].

و- ضرورة اتباع سبيل المصلحين:

على الناس أن يتبعوا سبيل المصلحين، ويجتنبوا سبل المفسدين. قال - تعالى – في سورة الشعراء: (**ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون**)[1].

وقد أوصى موسى - عليه السلام - أخاه هارون حين استخلفه بألا يتبع سبل المفسدين، قال تعالى: (**وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**)[2]. فهما صنفان من الناس: مصلح أو مفسد، ولا يستويان. قال - تعالى – في سورة البقرة: (**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد**)[3].

ز- استحالة تسوية المفسدين بالمصلحين

لا يمكن أن يستوي أهل الإصلاح وأهل الإفساد في الدنيا ولا في الآخرة. قال - تعالى – في سورة ص: (**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار**)[4]. أبداً لا يستوون، وقال تعالى في سورة الرعد: (**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**

---

1 – [الشعراء، 152].

2 – [الأعراف، 142].

3 – [البقرة، 205].

4 – [ص، 28].

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)[1]. وفي تلك الدار، دار البوار، فإن العذاب يضاعف للمفسدين جزاء ما تعدى فسادهم في أنفسهم إلى إفسادهم لغيرهم، قال تعالى في سورة النحل: **(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون)**[2]. وهل بعد ذلك من خسران؟ أبداً، وقال تعالى في سورة البقرة: **(الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون)**[3].

﴿وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾[4].

﴿وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ ﴾. صب: أي أفرغ وألقى. وكلمة صب معناها الغزارة، فأحياناً تفتح الصنبور ينزل منه خيط من الماء، أما إذا صببت على هذا الشيء دلواً من الماء تقول: صب. أي الصب بمعنى الغزارة.

1 – [الرعد، 25].

2 – [النحل، 118].

3 – [البقرة، 27].

4 - [سورة الفجر آية 13]

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾. ، والسوط بمعنى اللذع، أي عذابٌ مؤلمٌ غزير، عذابٌ مؤلمٌ وغزير في وقتٍ واحد، أي أنواعا من العقوبات التي أنزلها عليهم جزاء طغيانهم.

فالله تعالى يسأل النبي ﷺ: ألم تر كيف فعل ربك بعاد وثمود وفرعون ، وهم من كانوا في القوة والمنعة ، ورغم ذلك لم يمنعهم كل هذا من الله تعالى، ثم يوضح الله عز وجل للنبي ﷺ السبب الذي أدى إلى نزول العذاب بهم، فالعذاب لا ينزل هكذا اعتباطا، وإنما لأسباب حازمة، فقال: " **الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد"** ، فلقد طغت هؤلاء الأقوام طغيانا عظيما، وأكثروا الفساد في الأرض، فأرسل الله عز وجل لهم الرسل، ورغم ذلك استمروا في طغيانهم ولم يرتدعوا أو يتذكروا ، **"فصب عليهم ربك سوط عذاب"**، والصب هو النزول المتوالي،ولقد صب عليهم الله عز وجل سوط عذاب ، ولم يصب عليهم العذاب! فالعذاب الحقيقي والصب الحقيقي سيكون في الآخرة! أما في الدنيا فمجرد سوط ، والسوط كما جاء في المقاييس: "السين والواو والطاء، أصلٌ يدلُّ على مخالطة الشَّيءِ الشيءَ. يقال: سُطت الشّيءَ: خلطتُ بعضَهُ ببعض. وسَوَّط فلانٌ أمرَهُ تسويطاً، إذا خَلَطَه. ومن الباب السَّوط، لأنّه يُخالِط الجِلدة؛ يقال سُطْتُهُ بالسَّوط: ضربتُهُ. وأمَّا قولهم في تسمية النَّصيب سَوطاً، فهو من هذا. قال الله جلَّ ثناؤه: (**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**) [1]، أي نَصيباً من العذاب." اهـ

---

[1] – [الفجر 13]

أي أن العذاب الذي نزل بهم لم ينزل صافيا بل كان مخلوطا ، فما بالنا بالعذاب الذي سينزل يوم القيامة!؟

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[1].

﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾. يَرقُبُ أعمَالَهم ويُجازيهم عليها. والمرصاد: هو المكان الذي يقوم فيه الرصد، والرصد من يرصد الأمور: أي يترقبها ليقف على ما فيها من الخير والشر، ويطلق أيضًا على الحارس الذي يحرس ما يخشى عليه. هؤلاء الذين استبدُّوا، وظلموا في بلاد الله، فأكثروا فيها بظلمهم الفساد، فصب عليهم ربُّك عذابا شديدا. إنَّ ربك -أيها الرسول- لبالمرصاد لمن يعصيه، يمهله قليلا ثم يأخذه أخْذَ عزيز مقتدر.

والملاحظ أن هذا العذاب نزل بعدما طغوا وتجبروا وتكبروا ، لأن ربنا سبحانه بالمرصاد" **إن ربك لبالمرصاد** ". فلا "تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون". فالله عز وجل بالمرصاد، وهو مفعال من الرصد ، وهو بمعنى المراقبة والتهيؤ والإعداد ، وكما جاء في المقاييس: "الراء والصاد والدال أصلٌ واحد، وهو التهيُّؤُ لِرِقْبةِ شيءٍ على مَسْلكِه، ثم يُحمَل عليه ما يشاكلُه. يقال أرصدتُ له كذا، أي هيّأْتُه له، كأنّك جعلتَه على مَرصَده. وفي الحديث: " **إلاّ أنْ أُرْصِدَه لدَيْنٍ عَلَيّ** " وقال الكسائيّ: رصدتُه أرصُدُه، أي ترقَّبتُه؛ وأرصَدْت له، أي أعدَدْت.... " اه

[1] - [سورة الفجر آية 14].

إذا، فالله راقب لأفعال العباد، معد لهم –في الدنيا والآخرة- ما يناسبها من الثواب والعقاب، وقد يتأخر هذا الجزاء ثوابا أو عقابا ، ولكنه نازل لا محالة، لأن الله تعالى بالمرصاد.

إن ربك لبالمرصاد يجب أن تفهم على عمومها ولا تبقى مقتصرة على عاد وثمود وفرعون، وبالتاي فإن كل حركاتك وسكناتك، وخواطرك، ونياتك، وطموحاتك، وما تنوي أن تفعله وما تفعله، وما تكنُّه وما تسرّه وما تعلنه، مرصودٌ من الله عزَّ وجل ، أي مراقب مراقبة دقيقة، فلنت تحت المراقبة الإلهية. وإذا ظنَّ الإنسان أنّه تحت المراقبة البشرية فإنه لا ينام الليل، فكيف إذا كنت تحت الرقابة الإلهية، الذي يعلم السر وأخفى؟ فقل ما شئت، فهو سبحانه يعرف بواطنك، ويعرف نياتك، ويعرف خلفيّات القول، وطموحاتك من هذه الدعوة، ومن هذا اللقاء، والذهاب، والنزهة، والسفر، ويعلم كلّ شيءٍ عنك وأنت تحت رقابته ، و لو تذوّقنا معنى هذه الآية وتيقنا بها، فهي وحدها تكفي لانتظ ام علاقتنا ببعضنا، وعلاقة العمل، وعلاقات الوظيفة والبيت والجيران، وأيّة علاقةٍ في الحياة إن ربك لبالمرصاد،

وإذا كنت مثلا في جلسة، وشعرت بوجود آلة للتسجيل ، فإنك ستنضبط أكثر، وتتوسل إلى صديقك أن يمحو ما سجل عليها من كلامك إن كان خارجا عن الصواب، فبوجود المسجلة تجد نفسك منضبطاً، وإذا كانت هناك صورة وصوت فالانضباط يكون أكثر ، فما بالك وأنت تحت الرقابة الإلهية المستمرّة، في خلوتك وجلوتك ، وفي بيتك، ولذلك من لم يكن له

ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله، فللإنسان بهذه الآية ينضبط، ويصبح سرّه كجهره، فلا تجد عنده ازدواجية، بل يكزن له موقف واحد، باطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، ونياته كما يقول

وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه في سورة الفجر

وجه الصلة بين المقسم به ، والمقسم عليه الذي هو جواب القسم، تتجلى في أن من كان ذا لبٍّ، علم أنّ ما أقسم اللّه به من هذه الأشياء الخمسة، الفجر، والليالي العشر، والشفع، والوتر، والليل إذا يسر، فيه دلائل على قدرته وحكمته، فهو قادر على أن يكون بالمرصاد لأعمال الناس جميعا، فلا يعزب عنه أحد، ولا يفوته شيء من أعمالهم، لأنّه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم؛ خصوصاً بالنظر إلى ما أدَّب به قوم عاد وثمود مع ما كان لهم من القوة والمنعة.

محور الفقرة الثالثة: كشف حقيقة الإنسان في ظنه أن الكرامة والمهانة معلقة بالإعطاء والمنع.

الفقرة الثالثة: من الآية 15 وتنتهي بالآية 22

الطغيان يبدأ على مستوى النفس ، عندما تتمحور حول ذاتها ، وتتشوف للتملك والعلو ، فإذا أُعطي المرء فرح ، وإذا حُرم سخط ، وليس هذا ميزان الحق ، وهذا الخلل على مستوى النفس يزداد حتى يستولي حب المال على النفس، وتموت الرحمة ومعاني الإنسانية في النفس ، فلا ترحم يتيما أو مسكينا .

هكذا تتأسس دول الطغيان على مستوى المفاهيم والأخلاق والقيم فيتحول المجتمع إلى صورة مشوهة من الوجود الإنساني في تجانس بين اتباع الشهوات والطغيان ثابت.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ
وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ﴿١٦﴾
ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ ﴿١٧﴾ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ
﴿١٨﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ

عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[1].

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴿١٥﴾﴾[2].

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

المراد من الإنسان في الآية ، جنس الإنسان وعامته ، بدليل الانتقال من المفرد إلى الجمع "تُكرمون، تحضون ...." .

أولا: لفظ الإنسان في القرآن:

ورد لفظ "الإنسان" في 39 سورة من سور القرآن الكريم ، كلها مكية إلا 6 سور ، وهي : "النساء، والحج، والأحزاب، والرحمن، والإنسان، والزلزلة".

وتكرر هذا اللفظ 58مرة في 56 آية من القرآن الكريم.

تكرر: في الإسراء 5 مرات،وفي القيامة 6 مرات، وفي العلق 3 مرات، وفي مريم ،والزمر ، وفصلت ، والشورى ، والرحمن ، والإنسان ، وعبس ،

---

[1] - [سورة الفجر الآيات 15 - 22]

[2] - [سورة الفجر آية 15]

والفجر: 2 مرتين في كل سورة، وفي النساء ، ويونس ، وهود ، وإبراهيم ،والحجر ، والنحل ، والكهف ، والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والعنكبوت ، ولقمان ، والسجده ، والأحزاب ، ويس ، والزخرف ، والأحقاف، وق ، والمعارج ، والنازعات ، والانفطار ، والانشقاق ،والطارق ، والبلد ، والتين ، والزلزلة ، والعاديات ، والعصر: مرة واحدة في كل سورة.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾:امْتَحَنه واختبَره بالنعم أو النِّقم، ببسط الرزق وإقتاره،

﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾: أي صيره مكرما يرفل في بحبوحة النعيم،

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ١٦﴾[1].

فأما الإنسان إذا ما اختبره ربه بالنعمة، وبسط له رزقه، وجعله في أطيب عيش، فيظن أن ذلك لكرامته عند ربه، فيقول: ربي أكرمن. والحقيقة أن هذا ليس إكراماً، لأن الله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، لهذا لا يمكن أن تكون الدنيا مقياساً لمحبة الله عزَّ وجلَّ للفرد ، ولينظر الناظرُ بعقله في حال سيد الخلق وحبيب الحق، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، هل الله أكرمه أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال قائل: لقد أهانه، فقد كذب، وإن قال: قد أكرمه، فهذا يعني أنه أهان غيره

1 - [سورة الفجر آية 16]

ممن أعطاه الدنيا، والحقيقة أن الدنيا عطاء ومنعا ليست مقياس التفاضل، لهذا جاء الرد من الله ب"كلا"،فهي التي توضح هذه الآية؟ فكلمة (كلا)، الله سبحانه وتعالى يزجر بها قائل هذه الكلمة ويردعه، المال الذي يعطيه الله عزَّ وجلَّ ليس إكراماً بل هو ابتلاء ، الإنسان يبتلى بالمال، قد يتوهم الفقير أن الله سبحانه وتعالى لو أعطاه المال لفعل الخيرات في كل اتجاه، وفي كل جانب، فإذا آتاه الله المال بخل به وحاسب على الدرهم والدينار وأصبح حريصاً، إذاً هذا المال الذي يعطيه الله عزَّ وجلَّ ليس إكراماً بل هو ابتلاء، ومعنى ابتلاء أي يمتحن الإنسان بالمال، فإن كان معدنه ذهباً كان على المال متواضعاً وكريماً، وإن كان معدنه خلاف ذلك أصبح على المال بخيلاً ومتكبراً، فالمال ليس إكراماً ، إنما هو ابتلاء، روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: **(إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرز اقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب)**[1]. وفي رواية أحمد في المسند: **(إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرز اقكم، وإن الله -عزوجل- يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بو ائقه، قالوا: وما بو ائقه يا نبي الله؟ قال: غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به**

---

[1] – قال الذهبي في التلخيص: صحيح الإسناد.

فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله -عز وجل- لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، وإن الخبيث لا يمحو الخبيث)[1].

وفي رواية ابن أبي شيبة : **(إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرز اقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب، فمن ضن بالمال أن ينفقه، وخاف العدو أن يجاهده، وهاب الليل أن يكابده، فليكثر من قول : سبحان الله ، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)**[2].

إذاً : قد يُعْطي الله الملك لمن لا يحبه كفرعون، وقد يعطيه لمن يحبه كنبي الله سليمان عليه السلام ، وقد يُعطي المال لمن لا يحبه ، مثل قارون ، وقد يعطي المال لمن يحبه ، مثل سيدنا عبد الرحمن بن عوف، وسيدنا عثمان ﷺ، صحابةٌ كرام أجلاء أعطاهم الله المال ، فإذا كان المال يُعطى لمن يحب ولمن لا يحب ، والقوة تعطى لمن يحب ولمن لا يحب ، إذاً لا علاقة لها بالحب والبُغْض ، مادامت القوة تعطى لمن يحب الله عزّ وجل ولمن لا يحب، أعطاها لسليمان عليه السلام ، وهو يحبه ، وهو نبيٌّ كريم ، وأعطاها لفرعون وهو لا يحبه، والمال أعطاه لقارون وهو لا يحبه ،

[1] – ورواه الإمام أحمد في مسنده بزيادة، وهذا لفظه

[2] - ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وعلى هذا فالحديث صحيح.

من هنا يتبين أن عطاء وأعطاه لعبد الرحمن بن عوف ﷺ وهو يحبه ، الدنيا ومنعها لا علاقة له بالحب والبغض ، ولذلك : إذا كان أحد الناس قد آتاه الله المال فلا يذهَبَنَّ به الظن إلى أن هذا المال الذي آتاه الله عزّ وجل دليل حب الله له، فهذا استنباط غير صحيح ، والأدلة قطعية ، وإذا جعل الله الإنسان قوياً لا يذهَبَنَّ به الظن إلى أن الله يحبه ، قد يحبه وقد لا يحبه، يحب الله عبده إذا عبده، ويبغضه إذا عصاه ، هذا هو المقياس ، فحب الله وبغضه هو في الطاعة والمعصية ، لذلك لما سُئِلَ الإمام الجنيد رحمه الله : " من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال : لا، قالوا : أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال : لا ، الولي كل الولي، الذي تجده عند الأمر والنهي " ، أن يجدك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك، فإذا كان الله عزّ وجل يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب ، ويعطي القوة لمن يحب ولمن لا يحب ، فما الشيء الذي لا يعطيه إلا لمن يحب ؟ إذا عرفت الله عزّ وجل ، وعرفت منهجه ، والطريق الصحيح ، ولماذا أنت في الدنيا ، وسرَّ وجودك ، ومهمَّتك في الدنيا ، وسِرْتَ في الطريق الصحيح ، وجاءت حركتك اليومية مطابقةً لهدفك في الحياة فأنت ممن يحبهم الله عزّ وجل ، لأن نعمة الإيمان لا تعدِلُها نعمة ، في حين أن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين. قال تعالى في سورة الإسراء : **(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ**

كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)[1]، من هنا يتبين أن عطاء المال ابتلاء، ماذا فعل بالمال؟ هل تقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ وكفى عياله؟ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:**(ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله)**[2]. أم أنفق المال بطراً وكبراً وإسرافاً وتبذيراً ورياء الناس؟ هل تقرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ بالمال كما قال سيدنا أبو ذر ﷺ: **(حبَّذا المال أصون به عرضي، و أتقرب به إلى ربي)**، فالمال ليس إكراماً ، إنما هو ابتلاء، ويدك على المال هي يد الأمانة، أعرابيٌ كان يقود قطيعاً من الإبل سُئل: لمن هذه؟ قال: لله في يدي. قالوا: هذه أوجز إجابةٍ في اللغة العربية. إذاً فالذي بيدك ليس لك، إن لِله ما أعطى وله ما أخذ، هذا الابتلاء بالمال ، لينظر كيف تعملون؟ هل تنفق المال على الملذات أم على القربات؟ فأبواب الخير المفتَّحة عن طريق المال لا تعدُّ ولا تحصى، وما عبد الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر ، قال تعالى في الحديث القدسي :(**أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**)[3]، وقال تعالى في سورة البقرة:﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً** ﴾[4].

---

1 – [الإسراء: 18 - 21]

2 – [مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

3 – [متفق عليه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

4 – [سورة البقرة: 245].

ثانيا: من عاش تقياً عاش قوياً.

جوارح حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر؛ هذه كلمة، قالها أحد العلماء القدامى و قد عاش سبعةً وتسعين عاماً ، وهو متمتعٌ بكامل صحته ونشاطه، ظهره مستقيم، بصره حاد، وسمعه مرهف، وأسنانه في فمه، كان قوياً، فلما قال له تلامذته: يا أستاذنا ما هذه الصحة التي منَّ الله بها عليك؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، والدعاء النبوي الشريف قال عليه الصلاة والسلام فيه : **(ومتعنا اللهم بأسماعنا، و أبصارنا، وقوتنا،ما أحييتنا، واجعله الوارث منا)**، فالإنسان يبتلى لينظر كيف تعملون، قال الله تعالى في سورة الملك :﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[1].

ثالثا: الدنيا دار ابتلاء :

لذلك إنَّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترَحٍ لا منزل فرح، دققوا في هذه الكلمات، هذه خطبة لرسول الله، فمن عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي، الدنيا دار ابتلاء، ولذلك يجب أن تعتقد أن كل شيءٍ في يديك امتحانٌ وابتلاء، فالزوجة ابتلاء، والمال ابتلاء،

---

[1] – [سورة الملك: 2].

والسمع ابتلاء، والبصر ابتلاء، والفكر ابتلاء، واليد ابتلاء، وكلٌّ شيءٍ أعطاه الله لك إنما هو ابتلاء:

لا تفرح بالمال، افرح إذا أنفقته في طاعة الله، لا تفرح بالجاه، افرح إذا سخرّته لخدمة الضعيف، لا تفرح بالزوجة التي تروق لك، افرح بزوجةٍ مؤمنةٍ عرفتها إلى الله عزَّ وجل، لا تفرح بأولادٍ تعتز بهم افرح بأولادٍ ينفعون الناس من بعدك، هؤلاء الأولاد صدقةٌ جارية لا ينقطع خيرها. إذاً ليس عطائي إكراماً، إنما هو ابتلاء، كأن الله عزَّ وجل يقول: يا عبادي عطائي لكم في الدنيا ليس إكراماً إنما هو ابتلاء، السبب: لأن هذا العطاء سوف ينتهي بالموت، إذاً ليس عطاءً، كل عطاءٍ ينقطع ، لا يسمى عند الله عطاءً، أما عند البشر قد يسمى عطاءً.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[1].

﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾.

فَضَيَّقَه عليه ولم يَبسُطْه له. وصيره فقيرا مقترا عليه في الرزق، تقول قدَرت عليه الشيء: أي ضيقته عليه، وكأنك جعلته بقدر لا يتجاوزه ، كما قال تعالى: **(وَمَنْ قُدرعَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ).**

---

[1] - [سورة الفجر آية 17]

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ١٨﴾[1].

وأما إذا ما اختبره، فضيَّق عليه رزقه، فيظن أن ذلك لهوانه على الله، فيقول: ربي أهانني

انتقل الله تعالى من القَسَم بالأمور الخمسة، والمقسم عليه، أنه سبحانه وتعالى بالمرصاد، ليوضح للإنسان أنه غافل عما ذكره الله عز وجل في أول السورة، وأقسم به، وكيف أنه ينسى أن الله عز وجل بالمرصاد، وليست العبرة بالقريب، وإنما العبرة بما يؤول إليه الإنسان – أو الأمّة كلها- فهذا هو الجزاء الحقيقي الباقي! فيقول سبحانه: (**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِ**)، فيوضح الله عز وجل أن عملية الشفع والوتر التي ذكرها في أول السورة في القسم هي من الابتلاء الذي ينزل بالناس أمما وأفرادا، لعلهم يحمدون أو يتضرعون ، ولكنهم ينسون! فيقول سبحانه: (**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ....**)، فالإعطاء والإكرام والتنعيم هو ابتلاء من الله عز وجل، لينظر أيشكر أم يكفر ، قال تعالى في سورة النمل: (**قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**)[2]، فيظن الإنسان أن الله عز وجل بعطائه إياه أنه راض عنه، وأن الله عز وجل أكرمه، قال تعالى

[1] - [سورة الفجر آية 18]

[2] – [النمل : 40]

في سورة سبأ: **(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ، وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)**[1]، فيظن الإنسان أن عطاء الله دليل على الرضا والإكرام ، وإذا حدث وكان هناك بعث ، فسيكون هناك كذلك من الفائزين ، قال تعالى في سورة الكهف: **(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً)**[2]، فينسى الإنسان شكر الله ويكفره! وإذا حدث الابتلاء بالشكل المغاير، وكان الابتلاء بتقدير الرزق –ولا يشترط في تقدير الرزق تضييقه ، بل قد يكون لدى الإنسان ما يكفيه ، ولكنه ينظر إلى من فتح الله لهم في الرزق!- فيظن أن في هذا إهانة من الله عز وجل له!

فهذا الشخص قد يكون دخله محدوداً، هذا الدخل المحدود لم يتح له أن يأكل ما يريد، ولا أن يلبس ما يريد، ولا أن يسكن حيث يريد، ولا أن ينفق على عياله ما يشاء، في ساعة الغفلة ، يظن أن هذا تقتيرٌ من الله عزَّ وجل، بسبب أنه مهانٌ عند الله، هذا من وسوسة النفس الأمارة بالسوء، والشيطان اللعين.

ولتقريب الصورة، هناك طبيب جاءه مريضان، الأول ميؤوسٌ منه ، مرضه عضال لا شفاء له، والثاني معه التهاب حاد في المعدة، فربما شدد تشديداً كبيراً على المريض الثاني، وأعطاه قائمة بالممنوعات، وقال للأول: كل ما شئت، فظن هذا الثاني أن الطبيب لا يحبه، وإنما قتَّر عليه لهوانٍ له

---

1 – [سبأ: 35]

2 – [الكهف: 36]

عنده، ولأنه أباح للأول أن يأكل ما يشاء فهو مكرمٌ عنده، والحقيقة، أن المريض الثاني أمله بالشفاء كبير، ومرضه ليس خطيراً، وشفاؤه وشيك، ولذلك شدد عليه، فللعبد قد يضايقه الله عزَّ وجلَّ بماله، وبدخله، وبصحته، وأولاده، ويريد أن يعالجه، ويرفعه، ويطهره، ويقربه، ليعطيه الآخرة المديدة الأبدية، فالذي تجرد من منهج الله لا يرى في منع الله عطاء، بل يقول يعتبرها إهانة، ومتى كان الدواء فيه إهانةٌ للإنسان؟ ومتى كان مكبح السيارة إهانة لمحركها؟ من أجل سلامتها، فمكبح السيارة لا بد منه لضمان سلامتها، وكذلك الأمراض والآلام والمتاعب والأحزان والهموم، فالمؤمن حينما يعالجه الله عزَّ وجل يتلقى المعالجة بتفهم وصبر ، فالله سبحانه وتعالى غنيٌ عن تعذيبنا، وإذا ابتلانا فلمصلحتنا، ليردنا إليه، وليحملنا على طريق الحق، والدنيا لا قيمة لها عند الله عزَّ وجل، إذا قيست الدنيا بالآخرة فلا قيمة لها، ومثال آخر لتقريب الفهم للأذهان، يتعلق بأبٍ رأى بيد ابنه لعبة تلهيه عن الامتحان، فكسَّر هذه اللعبة ، وقد يكون ثمنها باهضا، لكن الأب يرى أن نجاح ابنه في هذه الشهادة ، وتدرُّجه في مراقي العلم ، والمستقبل الذي ينتظره ، أغلى بكثير من ثمن اللعبة ، ولذلك حطمها ليريح ابنه منها ، ويزيحها من طريقه حتى تصفو وجهته إلى الدراسة، فهذا يفعله الأب أحياناً، وهكذا يفعل الله عزَّ وجل - ولله المثل الأعلى- ، فحينما يرى أن العبد يتعلق بهذا الشيء، وانصرف إليه، وآثره على صلاةٍ أو طاعة ، عندئذٍ ينزعه منه لا لهونٍ له عليه ، ولكن معالجةً له، وإذا منع الطبيب مريضه عن نوعٍ من الطعام، فإن المريض لا يرى نفسه

مهاناً عند الطبيب، لذلك ليس عطاء الله إكراماً، وليس منعه إهانةً، فالله تعالى يقول لنا: عطائي ابتلاء، ومنعي اجتباء، أي تقريب ومعالجة. إن الله ليحمي صفيه من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، إن الله يحمي عبده من الدنيا، كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة، ما أصاب عبدٌ مصيبة إلا بإحدى كلتين: بذنبٍ لم يكن الله ليغفر له إلا بتلك المصيبة، أو بدرجةٍ لم يكن الله ليبلِّغه إياها إلا بتلك المصيبة. أي لا بد منها، فكلما ازداد عقلك، فهمت على ربك، فطبيب الأسنان مثلا، إذا كان عنده طفل يعالجه، فإن الطفل يبكي ويصيح، ويحرك يديه ورجليه، وقد يسبُّ الطبيب، أما الراشد فيجلس بهدوء، ولو كان في الوخز ألم، يتجشم الألم، وفي نهاية الجلسة يصافح الطبيب ويشكره ويعطيه أجره، لماذا فعل الراشد هذا؟ وفعل الصغير هذا؟ الراشد لأنه راشد، والصغير لأنه جاهل، فالمؤمن حينما يعالجه الله عزَّ وجل يتلقى المعالجة بتفهم وصبر ورضى.

رابعا: الإيمان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ:

هذه الآية، استنبط منها العلماء شيئاً آخر، أن الإيمان كله نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، فإذا ابتلاك الله بالنعم، فعليك أن تشكرها، وإذا ابتلى الله الإنسان بالنقم، عليه أن يصبر، ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فللنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءت الأمور على ما يحب قال: "**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**"، وإذا جاءت على غير ذلك قال: "**الحمد لله على كلِّ حال**"، قال عليه الصلاة والسلام: (**عَجَباً لأمر المؤمن!**

إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن)[1].

لما ردّ أهل الطائف الرسول ﷺ شرَّ رد، توجه إلى الله عزَّ وجل وقال: **(اللهم إني أشكو إليك ضعفَ قوتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهو اني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، و أنت ربي، إلى مَن تكلني، إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أم إلى عدو ملَّكته أمري، إنْ لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي...)** [2]، إذا فهم الإنسان على الله تصرفاته فقد أحرز معظم الإيمان، ومن لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظة، فمصيبته في نفسه أكبر، نفسُه هي المصيبة، أي إن لم تحدث المصيبة في نفس الإنسان موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر.

الإيمان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الشكر ذهب الإيمان، وربنا عزَّ وجلَّ قال: (كلا)، زاجراً ورادعاً، هؤلاء الذين يدَّعون أن العطاء إكرام والمنع إهانة، هذا خطأ وسوء فهم ، لهذا رفض الله عزَّ وجل مقولتهم، وتفكيرهم، وتوهمهم، واعتقادهم . فرد الله عز وجل على هذين الظنين الباطلين ، ووضح أن الإكرام والمهانة ، أو توسيع الرزق وتضييقه، راجع كذلك إلى بعض العوامل في مجتمع الإنسان

---

[1] – [أخرجه مسلم عن صهيب الرومي ﷺ].

[2] - [أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فإذا أتى الناس بهذه الأفعال ، قُدّر عليهم في أرزاقهم ، وظهر فيهم الفساد الذي يؤدي إلى إهلاكهم -، وبداهة إذا أتوا بمعكوسها ينصلح حالهم ويفوزوا في الدنيا ، وإذا كانوا من المؤمنين فازوا في الدارين- ويكونوا هم بهذا هم الذين أهانوا أنفسهم! وهذه الأفعال هي عدم إكرام اليتيم، وعدم الحث على طعام المسكين، و أكل ميراث الضعفاء من النساء والأطفال، وحب المال كثيرا، قال تعالى:

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٩﴾[1].

﴿كَلَّاۖ ﴾. رَدْعٌ للإنسان عمَّا قاله فيالحالَيْن، و يتضح معنى هذه الآية من توضيح كلمة كلا، (كلا) لا تقابل (نعم) كما يتوهَّم بعض الناس، كلمة (كلا) أداة ردعٍ وزجرٍ، فقد يقول لك قائل: هل أنت جائع؟ تقول له: لا، فـ(لا) حرف نفي، وإذا قال لك: هل أنت مذنب؟ تقول له: كلا، تردعه وتزجره عن هذا الظن، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية قال: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ** .... الآية ﴾ ، فهذه هي مقولة هذا الإنسان، المتجرد عن منهج الله، هذا هو تفكيره، وهكذا جرى في خلَده ، وهكذا توهم وتصوّر، أنه إذا قدَّر الله سبحانه وتعالى لإنسانٍ مالاً وفيراً، أو صحةً جيدة، أو أولاداً كثيرين ذكوراً وإناثاً، أو تجارةً عريضة، أو دخلاً كبيراً، أو منصباً لائقاً، أو بعض ما في الدنيا من مالٍ أو

---

[1] - [سورة الفجر آية 19]

صحةٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو ما شاكل ذلك، فهذا الإنسان قد يظن ويتوهم و يعتقد أن الله أكرمه بهذا،

﴿بَل ﴾. لكم أعمالٌ أسوأُ من ذلك.

ومناسبة الكلام المنتقل إليه بعد (بل) للكلام المنتقل عنه قبل (بل)، هو أن الكلام المنتقل إليه هو نتيجة للكلام المنتقل عنه في هذه الآيات، فكأن المقطع يخبر عن حال هؤلاء قائلا: لقد انغمستم في الدنيا ، واستغرقت المادة نفوسكم، حتى صرتم لا تأبهون لا بضعيف ولا بمسكين ولا تأمرون بمعروف، ولا تنهون عن منكر ، ولا تعتبرون بالأموات يموتون حولكم ، بل تسارعون إلى نهب ما تركوا من مال غير آبهين، وقد امتلأت قلوبكم بحب المال. وقل مثل هذا في المقطع السابق في قوله تعالى : **(الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد)** ، حيث كان هذا الأمر – وهو الطغيان – نتيجة استغراقهم في قوتهم الموهومة، مما أدى بهم إلى الطغيان والفساد ، ثم كان حالهم ما علمت.

خامسا: وجوب رعاية اليتيم :

قال تعالى: ﴿ **كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** ﴾، أنتم إذا كنتم أصحاب أموالٍ طائلة تحبسونها عن الناس ، ولا تكرمون اليتيم، إذاً هذا المال الذي بين أيديكم ليس إكراماً لكم ، إنما هو امتحانٌ كشفكم على حقيقتكم ، عن

سهل بن سعد ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: **(أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى)**[1].

الفقهاء في موضوع مال اليتيم لهم بحوث رائعة جداً، فمن كان وصياً على مال أيتام لا ينبغي له أن يأكل من هذا المال شيئاً إذا كان غنياً، قال تعالى: (**ومن كان غنياً فليستعف**)، ولا ينبغي له أن ينفق على الأيتام من صلب المال، قال تعالى: (**وارزقوهم فيه**)، ولم يقل الله عزَّ وجلَّ وارزقوهم منه، يجب أن ترزقهم من ريع المال، لا من صلب المال، ويجب أن تستثمره لئلا تأكله الزكاة، وهذا المعنى ورد في بعض الأحاديث، فإذا كان الوصيُ فقيراً ، عليه أن يأكل بالمعروف، بلن يأكل من مال اليتيم أجراً يماثل أجر المثل أو حاجته أيهما أقل، أخذ به.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٢٠﴾[2].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ ﴾: لا يَحُثُّ ولا يأمر بعضُكم بعضًا.

لمَ لم يقل الله عزَّ وجل: ولا تطعمون المسكين؟ لأن كلمة التحاض على طعام المسكين فيها معنى التكافل الاجتماعي، فإذا بات مسلم جوعا فقد برئت ذمة الله من كل سكان ذلك الحي، فكيف إذا مات جوعا، قال

[1] – [أحمد والبخاري].

[2] - [سورة الفجر آية 20]

الفقهاء: أثم أهل البلدة كلهم . والنبي ﷺ قال:(**شر الطعام طعام الوليمة يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء**)[1].

ولو أن قرية وجدت فيها أسرة فقيرة وأصابها ضرٌ بسبب الفقر فإنّ أهل البلدة كلُّهم يأثمون، وإطعام هذه الأسرة من فروض الكفاية، فإذا قام بها البعض سقط عن الكل، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع، فكأنَّ الله سبحانه وتعالى يردُّ على هؤلاء، أنتم تعدّون المال إكراماً وتفعلون هكذا بالأيتام والمساكين!

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿٢١﴾﴾[2].

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: مِيراثَ النساءِ والصِّغار.

ومناسبة استخدام كلمة (التراث) هنا بدلا من المال مثلا ، أن التراث هنا بمعنى الميراث، وهو المال الذي يتركه الميت بعد موته، واستخدام هذه الكلمة بدلا من المال مثلا ، إشارة إلى أن الناس يسرفون على أنفسهم في أكل المال، حتى لو كان هذا المال مال ميت من أقاربهم لم يلبث أن توفي، فبدلا من أن يعتبر الناس بموت بعضهم البعض ، ينسون ذلك ويسارعون

---

[1] – [مسلم عن أبي هريرة].

[2] - [سورة الفجر آية 21]

في اقتسام تركته ، كل يطمع في أخذ أكبر حصة ، ولا يبالي أكلها بحلال أو حرام.

﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾: أي شديدا، جَمعًا بين الحلال والحرام.

فالمنازعات الآن بين الأسر، والعداوات، والمحاكمات، والقضاء مثقل بمشكلات الإرث، كلُّ طرفٍ يحبُّ أن يأخذ كل الإرث وحده ، وأن يحرم الباقين، ولا يقنع المرء بأخذ نصيبه، بل يريد أن يأخذ ماله ومال غيره، وعلامة المؤمن أنه يكتفي بماله، وكلُّ شيءٍ يؤخذ من الإرث قبل توزيعه فهو غلول، والغلول نوعان:

*ما يؤخذ من غنائم الحرب قبل توزيعها.

* وما يؤخذ من الإرث قبل توزيعه، فتأخذ مثلا ساعة وتقول: هذه من رائحة أبي، أو سجّادة، أو شيء ثمين، لقطعة أثرية ، فأي شيء تأخذه قبل توزيع التركة فهو غلول.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٢﴾[1].

﴿حُبّٗا جَمّٗا﴾: كثيًرا مع حِرصٍ وشَرَهٍ.

ليس الأمر كما يظن هذا الإنسان، بل الإكرام بطاعة الله، والإهانة بمعصيته، وأنتم لا تكرمون اليتيم، ولا تحسنون معاملته، ولا يَحُثُّ

[1] - [سورة الفجر آية 22]

بعضكم بعضًا على إطعام المسكين، وتأكلون حقوق الآخرين في الميراث أكلا شديدًا، وتحبون المال حبًا مفرطًا.

فإذا كان في المجتمع إهمال لمن مات أبوه ، وتضييع له ، وعدم اهتمام بالضعفله المساكين، و أكل تام شامل للتركات، وتضييع لأصحابها، وتكالب على جمع المال ، وحب شديد له يلهي عن غيره ، فهنا ينزل حتما العذاب بذلك الإنسان اللاهي الغافل ، وهنا تكون الإهانة الحقيقية ، فليست الإهانة في تقدير الرزق، وإنما الإهانة عند تحقق هذه العناصر في المجتمع, فإذا تحققت ، ظهر الفساد ، وعمت الأثرة في المجتمع ، وغلب الحقد والتشاحن بين الأفراد، فيقودهم هذا إلى المهانة وإلى الهلاك!

والنبي عليه الصلاة والسلام قال: **(تعِسَ عبدُ الدِّينار، وعَبْدُ الدِّرهم، تَعِسَ عَبْدُ الخميصة)**[1].

سادسا: طبائع الإنسان في القرآن

1 - كل إنسان مسئول مسؤوليَّةً كاملةً عن أعماله

يجب أن نعلمَ أنَّ الإنسانَ مسئول مسؤوليّة فردية كاملة: - دون أن تغيبَ المسؤوليات والواجبات الجماعية الاجتماعية بين المسلمين -، فالإنسان مُكلَّفٌ، قال تعالى: **(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)**[2]،

---

[1] – [أخرجه البخاري عن أبي هريرة].

[2] – (الأحزاب : 72)

وقال سبحانه: (**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**)[1]. نفهم من هذه الآيات أنَّ الإنسان مسئول مسؤوليَّةً كاملةً عن أعماله، ولا أحدَ سيُحاسَبُ عنه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

2 - من طبعِ الإنسان إلقاءُ اللوم على غيره

من طبعِ الإنسان إلقاءُ اللوم على غيره، فهذا هو الإنسان، يصرخُ محمِّلًا .

أ - الشيطانَ المسؤوليةَ: قال تعالى: (**لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا**)[2].

ب - أو يحاول أن يلقي المسؤوليةَ على من هم أقوى منه، على من يستغلُّهُ، قال تعالى (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)[3]، فإذا علمنا أنّه ليس للإنسان إلى ما سعى، فإننا نعلم أنَّه ليس له ما تمنَّى ورغب به فقط دون عمل: (أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى)؟[4]

3 - الضَّعفُ:

---

[1] – (الإسراء :13).

[2] – (الفرقان :29).

[3] – (البقرة) 166 - 167

[4] – (النجم : 24)

قال تعالى: **(يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)**[1]، من فهمنا لبقيّة آيات القرآن، نتبيَّنُ أنَّ ضعفَ الإنسان عامٌّ.

أ - **يشملُ الطبائعَ الخَلْقيّةَ** : فإنَّ الإنسان يولدُ ضعيفًا صغيرًا باكيًا، لا يستطيعُ أن يؤمِّن قوتَ يومِه، لكنّ عودَه يشتدُّ حين يكبُر، ثمَّ يُرَدُّ إلى ضعفِه في أرذل العُمُر.

ب - **ويشمَلُ الطبائع الخُلُقيّة** : فالإنسان ضعيفٌ أمامَ الشهواتِ والمُغرِياتِ، فهذا نبيّ الله آدمُ وزوجتُه عليهما السلام، أكلا من الشجرةِ التي نهاهُما عنها اللهُ، مع أنَّه كان في الجنَّةِ، لكنَّ نفسَه ضَعفَت أمام وساوس الشيطان، فإذا عَلِم المرءُ أنَّ الإنسان ضعيفٌ بطبعه، سعى إلى تقوية نفسه،

4 – الخسر:

قال ﷻ في سورة العصر: **(والعصر * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)**[2]، ولأنَّ الإنسان في خُسرانٍ منذُ لحظةِ ولادته ، فإنَّ ساعةَ موته تقترب، فعندما يوقن المرء بذلكَ، ينصح نفسَه ومن يلوذ به بالبِدار، لأنّه: بين عينيّ كلِّ حيٍّ.. عَلَمُ الموت يلوحُ، كما قال أبو العتاهيّة.

5 - الكُفران وجحد النِعَم:

[1] - (النساء :28).

[2] – (العصر، 1 - 2)

إذا عَلِم المرءُ أنَّ الإنسان ضعيفٌ بطبعه، سعى إلى تقوية نفسه، ولأنَّ الإنسان في خُسرانٍ منذُ لحظةِ ولادته ، فإنَّ ساعةَ موته تقترب، فعندما يوقن المرء بذلكَ، ينصحَ نفسَه ومن يلوذ به بالبِدار.قال تعالى : (**وآتاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**) [1]، وقال سبحانه: **(إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)** [2]، وقال عز وجل: **(قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)**[3]، وقال عز وجل: **(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ)**[4].

6 - الخصومة والجدل:

قال تعالى: (**خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**)[5]، وقال عز وجل: **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)** [6]، فالجدلُ هو أكثرُ صفةٍ تُميّزُ الإنسان، وكثيرًا ما نرى أناسًا يخاصمون عن الطغاة الظالمين بغرور.

7 - العَجَلة:

---

[1] – (إبراهيم : 34)

[2] – (العاديات :6)

[3] – (عبس :17)

[4] - (عبس :24).

[5] – (النحل :4)

[6] – (الكهف : 54)

قال جل شأنه: (خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)[1]، ومن العجلة تقديم الدنيا وتفضيلها على الآخرة، قال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ)[2]. فنرى اليومَ أقوامًا دينهم وديدنهم كل ما هو جديدُ وحديثٌ ، فنجد أديانًا جديدة ، كدين حبُّ الاستهلاك، ودين التسوُّق، ودين الحداثة، فكل ما هو حديث وحادث ومُحدث فهو مطلوب، ولا يُهِمّ إن كان نافعًا أم ضارًا، حسنًا أم قبيحًا، الأهمُّ أن يكون حديثًا خرج لتوِّه من المصنع أو تُدووِل في الأسواق.

8 - الهلع والجزع والمنْع:

قال تعالى في سورة المعارج: (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)[3]، فإنَّ من طبيعة الإنسان الهلع والجزع ، والمنع والشحّ ، فإننا نرى في الغرب والشرق من غير المسلمين، كيفَ أنَّه يكْثر لديهم الانتحار والتوتر النفسي ، والغضب ، والحالات والأمراض النفسية التي تصيبهم، وهي ناجمة عن تخلُّقهم بهذه الأخلاق المُريعة.

9 - اليأس:

---

[1] – (الأنبياء :37)

[2] - (القيامة: 20-21)

[3] – (المعارج، 19 - 22).

قال تعالى في سورة الإسراء: **(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)** [1] ، وقال سبحانه: **(لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)** [2] ، وقد حرَّم الله اليأس فقال: **(وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)**[3] ، فليسَ لمؤمنٍ مسلمٍ أن ييأسَ.

10 - الغفلة والنسيان

من طبيعة الإنسان، الغفلة والنسيان ، وتناسي البعث والعرض على الله تعالى، والغرق في الدنيا وشهواتها ، قال تعالى في سورة مريم : **(أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)** [4] ، وقال عز وجل في سورة الفجر : **(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى)**[5] ، وقال سبحانه في سورة الطارق: **(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)**[6] ، وقال تعالى في سورة الزلزلة: **(وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا)** [7] ، وقال ﷻ في سورة القيامة : **(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)**[8] ، وقال عز وجل في سورة النازعات :

---

[1] – (الإسراء :83).

[2] – (فصلت:49).

[3] – (يوسف، الآية 87).

[4] – (مريم :67).

[5] – (الفجر :23).

[6] – (الطارق:5).

[7] – (الزلزلة: 3).

[8] – (القيامة: 36).

(**يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى**)[1]، ولذلك شرعَ الله لنا الذكْرَ، لأنّ من طبيعة الإنسان النسيان.

11 - خلقُه من أخلاط مختلفة

خلقُ الإنسان من أخلاط مختلفة ، تؤثر في طباعه ، وتوجَّه بالتربية والتخلّق، قال تعالى في سورة الإنسان: (**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**)[2].

12 - خلقُه في أحسن تقويم:

قال تعالى في سورة التين: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[3].

13 – علم الإنسان بنفسه من غيره:

لا أحدَ أعلمُ بنفسِ الإنسان من الإنسان نفسِه ، قال تعالى في سورة القيامة: (**بَلِ الْإِنسَانُ على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**)[4].

14 - الأصل في النّاس الظلمُ عند الغِنى والقوة:

إنَّ العدل هو نتيجة أسباب مختلفة، كالتخلُّق والتربية والدين. قال تعالى في سورة العلق: (**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**)[1]، وقال المتنبي:
الظُلمُ مِن شِيَمِ النُفوسِ فَإِن تَجِد ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظلِمُ.

---

[1] – (النازعات:35).

[2] – (الإنسان:2).

[3] – (التين :4).

[4] – (القيامة :14)

15 - توهُّم الإنسان أنَّه سيخلُد:

قال تعالى في سورة الأنبياء: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) [2]، لذلك جاء التذكير بالأصل وهو العَدَم قال تعالى : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) [3].

16 - الأصل في الإنسان الجهلُ:

قال تعالى في سورة العلق : (**عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**) [4]، إنَّ في هذه الآيات لعلاماتٍ دالّة قويّة واضحة للمتوسّمين ، تدلُّ على شدّة ضعف الإنسان ، وعظمَة خالقِه ، وحاجته إلى رحمته وإليه، فتعالى الله الملك الحق، تعالى عُلُّوًا كبيرًا.

---

[1] – (العلق، 6 - 7).

[2] – (الأنبياء : 34)

[3] – (الإنسان :1).

[4] – (العلق:5).

محور الفقرة الرابعة:
وقت انكشاف الحقيقة
في مشهد مهيب
من مشاهد يوم القيامة.

الفقرة الرابعة: من الآية 23 وتنتهي بالآية 30

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢٣﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٤﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٥﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٧﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٩﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٣٠﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٣١﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٢﴾﴾[1].

النفوس المشوهة، لا تقبل نصحا أو توجيها حتى يأتي يوم الحق لتذوق هذه النفوس ويلات أفعالها وحيدة ذليلة.

---

[1] - [سورة الفجر، الآيات 23 - 32]

وفي ظل هذه الملحمة، تنجو نفوس مطمئنة لوعد الله، وبمعية الله، وباتباع أمره ، فهنيئا له رضاه بقدر الله ورضا الله عنها وقربه وجنته.

إنها ملحمة الفجر ، حيث يُدْبر الليل ، ويُقبل النهار ، حريٌ بأولي الألباب تدبرها، للتفقه في سنن الله في الأزمان .

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢٣﴾[1].

﴿كَلَّآ﴾. يوضح الله تعالى للإنسان بقوله "كلا" أن ما في الدنيا ليس هو الإكرام والإهانة، وإنما يكون الإكرام والإهانة الحقيقيين في الآخرة، فكل ما في الدنيا هو خلط أو جزاء بسيط، فإذا جاءت الآخرة، كان الأصل والدوام.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾: دقَّتْ وكُسِرَتْ بالزّلازل.

﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾: الدكّ: حط المرتفع بالبسط والتسوية ، ومنه اندكّ سنام البعير إذا انغرس في ظهره، (دكا دكا): أي دكا بعد دك: أي كرّر عليها الدك وتتابع حتى صارت كالصخرة الملساء، ودَكًّا مُتَتَابِعًا حتى صارت هَباءً.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٤﴾[2].

---

[1] - [سورة الفجر آية 23]

[2] - [سورة الفجر آية 24]

﴿وَالْمَلَكُ﴾: ملائكةُ كلِّ سماءٍ.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾: أي صفا بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم في الفضل.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴿٢٥﴾﴾[1]: أي كشفت للناظرين

بعد أن كانت غائبة عنهم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٦﴾﴾[2].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾: من أين له مَنفَعَتُها؟هَيْهات، أي ومن أين

له فائدة التذكر وقد فات الأوان،

ما هكذا ينبغي أن يكون حالكم. فإذا زلزلت الأرض وكَسَّر بعضُها بعضًا، وجاء ربُّك لفصل القضاء بين خلقه، والملائكة صفوفًا صفوفًا، وجيء في ذلك اليوم العظيم بجهنم، يومئذ يتعظ الكافر ويتوب، وكيف ينفعه الاتعاظ والتوبة، وقد فرَّط فيهما في الدنيا، وفات أوانهما؟

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٧﴾﴾[1].

---

[1] - [سورة الفجر آية 25]

[2] - [سورة الفجر آية 26]

يقول: يا ليتني قدَّمتُ في الدنيا من الأعمال ما ينفعني لحياتي في الآخرة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٨﴾﴾[2].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٩﴾﴾[3].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ ﴾: والوثاق: الشدّ والربط، بالسلاسل والأغلال.

أي لا يَشُدُّ بالسلاسلِ والأغلال.

ففي ذلك اليوم العصيب لا يستطيع أحدٌ، ولا يقدر أن يُعذِّبَ مثل تعذيب الله من عصاه، ولا يستطيع أحد أن يوثِقَ مثل وثاق الله، ولا يبلغ أحدٌ مبلغه في ذلك.

باب التوبة مفتوح وكلُّ شيءٍ يصلَّح مادام في الحياة بقيّة :

إذا كان الله عز وجل قد أخبرنا عما سيحدث يوم القيامة وقت عدم نفع التذكر وأنى له الذكرى، أي لا تنفعه الذكرى، تذكَّر أو لم يتذكَّر، اتعظ أو لم يتَّعظ مضى وقت الاتعاظ، عندما يرتكب الإنسان جريمة شنعاء ويحاكم محاكمةً عادلة، ويساق إلى حبل المشنقة، والناس مجتمعون

[1] - [سورة الفجر آية 27]

[2] - [سورة الفجر آية 28]

[3] - [سورة الفجر آية 29]

ليشاهدوا شنقه، فلو أحبَّ أن يبكي يبكي، أو يضحك فليضحك، أو يحب أن يصبر فليصبر، وإذا أحب أن لا يصبر فلا يصبر، يحب أن يرفع صوته فليرفع صوته، يحب أن يتوسَّل فليتوسَّل، يحب أن يسكت فليسكت فسيَّان الأمر، لا بدَّ من تنفيذ الحكم فيه. فالآن الباب مفتوح، والآن في الأمور يسر، فباب التوبة مفتوح، كلُّ شيءٍ يصلَّح مادام في الحياة بقيّة، ومادام هذا القلب ينبض كلُّ شيءٍ له حل، فإذا توقَّفت دقَّات القلب خُتم العمل ورفعت الأقلام وجفَّت الصُحف، وإذا تذكَّر الإنسان يقال له:

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾[1].

فهكذا كله تحفيز وتشجيع على التوبة لأن بابها لميغلق بعد، ولا زالت الفرصة سانحة للتذكر والندم على مافات والإقلاع عن السيئات ورد المظالم إلى أهلها

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٣٠﴾﴾[2].

1 - مقدمة عن النفس البشرية

إنّ النفس البشريّة هي أحد العناصر الرئيسية في الإنسان، وهي أحد الأمور التي لا تزال غامضةً بالنسبة للإنسان ، والتي فيها جدلٌ كبيرٌ أيضاً، فنفس الإنسان هي العنصر الذي لا يستطيع أحدٌ دراسته بشكلٍ ماديٍّ

[1] – [سورة الأنعام: 158].

[2] – [سورة الفجر، آية 30]

لارتباطها بالروح، فوضع العلماء والفلاسفة القدام ى تعاريفَ للنفس ، وقسّموها إلى عدة أقسام، فاهتمّ الفلاسفة اليونان في تعريف ومعنى النفس وخاصةً فلاسفة ما بعد سقراط، كما ورد في القرآن الكريم تقسيمٌ للنفس إلى ثلاثة أقسام، وقسّم العديد من العلماء المعاصرين وغيرهم النفس واهتمّوا بشرحها كونها الجزء الأساسي في تكوين الإنسان.

2 - تعريف النّفس البشريّة

هي الجُزء المقابل للجسم في تشاركهما وتفاعلهما وتبادلهما المستمر، وهي جزءٌ مُحركٌ لنشاطاته بأنواعها، سواء كانت إدراكيّةً، أم حركيّةً، أم انفعاليّةً، أم أخلاقيّةً[1].

والنفس هي جوهر الذات الإنسانية، و المسؤولة عن أفعاله الحسن منها والقبيح . و هي شيء تقوم عليه حياة الإنسان ، فبها يحيا و بها يشعر ، و بها يعبد ربه ، قال سلمان لأبي الدرداء ﵄ : **(إِنَّ لِرَبِّكَ عليك حَقًّا، وإِنَّ لِنَفْسِكَ عليك حَقًّا، ولأَهْلِكَ عليك حَقًّا. فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ)** ، فأتى النبي صلى الله عليه و سلم فذكر ذلك له ، فقال النبي عليه السلام : **"صدق سلمان"**[2].

3 – أقسام النفس عند أفلاطون

[1] - م. محمود درويش، مفهوم النفس الإنسانية في الفكر التربوي الحديث دراسة تحليلية في ضوء الفهم المعاصر لها (الطبعة الأولى)، غزة: الجامعة الإسلامية، صفحة 363 . بتصرّف.

[2] – أخرجه البخاري في الصحيح.

قسّم أفلاطون النفس إلى ثلاثة أقسام هي:

***النفس الشهوانية:** ومقرها البطن.

***والنفس العاقلة:** ومقرها الرأس.

***والنفس الغاضبة :** ومقرها الصدر، والكمال لا يحصل للإنسان إلّا بتحقيق التوازن بين أجزاء النفس جميعها ، بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى؛ فهي كانت حسب آرائه واحدةً في عالم المثل، إلّا أنّ نزولها إلى عالم الحس شوّهها وأدّى إلى انقسامها هذا، ومن هنا وضع أفلاطون أساس المدينة الفاضلة بناءً على النفس البشرية ، والتي قُسّم الشعب فيها إلى ثلاثة أجزاء حسب النفس وهي:

***طبقة الحكام:** والتي تدل على النفس العاقلة.

***وطبقة الحراس:** والتي تدلّ على النفس الغاضبة.

***وطبقة العمّال:** والتي تُمثّل النفس الشهوانية.

4 - أقسام النفس في الإسلام:

ذكر القرآن الكريم مسمّياتٍ عدّةٍ للنفس البشريّة، فهل هي نفسٌ واحدةٌ؟ أم عدّة نفوسٍ؟ في الحقيقة أنّهاواحدةٌ وتملك صفاتٍ كثيرةٍ، حسب تصرّفات صاحبها، وهي ثلاثة أنواع، أو يمكن وصفها أكثر ، بثلاث درجاتٍ للنفس، حسب اتباع صاحبها لأوامر الله تعالى ، والتي وضعها الله تعالى لعلمه بالنفس البشرية التي خلقها، ولأنّ الله تعالى هو خالق النفس ، فهو العالم أيضاً بأحوال النفس وكيفيّة جعلها مرتاحةً في الدنيا والآخرة، وأمّا هذه الدرجات للنفس في الإسلام فهي:

* **النفس المطمئنة:** هي نفسٌ خيّرة ، تأمر بالخير، وهي النّفس التي سَكنت إلى ربّها، وإلى صفاته الفضيلة، وأسمائه الكريمة، والطمأنينة تعني أنّ الله عز وجل يُنزل الاطمئنان والسّكينة على صاحب هذه النفس، فيَغدو قلبه، وسمعه، وبصره كله بين يديّ الله، ويُحقَّق الوصول إلى هذه النفس بكثرة الذّكر، والاستغفار الدائم غير المُنقطِع. هذه النفس تدعو إلى الحق وتأمر بالخير، قال تعالى في سورة الفجر: **(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)**[1]. وسميت مطمئنة، لأن صاحبها حين أطاع الله في كل أمره، بلغ درجه الاطمئنان في الدنيا والآخرة ،.وتمثل النفس المطمئنة أعلى مراتب النفس، لكونها التزمت بأوامره سبحانه وتعالى، فوصلت إلى الطمأنينة والسكينة. وسعدت بربها .

* **والنفس الأمّارة بالسوء:** هي نفسٌ كثيرة الذنوب، آثمةٌ، ظالمةٌ لصاحبها، فاسقةٌ شرّيرةٌ، تدعو صاحبها لفعل السوء. وتجرّه إلى غضب الله عز وجل وعصيانه، ابتعدت عن أوامر الله سبحانه وتعالى ، فأصبحت منقادةً وراء الشهوات والمعاصي. وأمرت الإنسان بفعل السيئات، و تأثير النفس الأمارة بالسوء كبير على الإنسان ، متمثلا في حبه للمال والنساء والشهوات، وتنتهي به في نار جهنّم، لهذا يَجب على صاحب هذه النّفس مُخالفة هواه وشهواته، والرجوع إلى طاعة الله ونيل رضاه، فمن تخلّص من شرّ نفسه وفتنتها، وفّقه الله عز وجل ، ووعده وَعداً حسناً. وقد جعل الله عليه حجتين: الأولى قبل فعل السوء ، وه ذه هي النفس العاقلة لكونها تبين له

---

[1] – [الفجر: 27 - 28]

الخير وتدعوه إليه، والثانية بعد فعل السوء ، وهي النفس اللوامة، تؤكد له خطأ فعله، وتوبخه عليه، و علاج النفس الأمارة، استحضار الخوف من الله تعالى ، مثالها امرأة عزيز مصر – زوليخا – في سورة يوسف ، قال تعالى على لسان امرأة العزيز: **(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)**[1].

***والنفس اللوّامة:** هي النفس كثيرة اللوم، تخافُ الله وتخشى عقابه، أثنى عليها الله، وأقسم بها في كتابه، وهي نفسٌ تحاسب صاحبها وتوبّخه على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، وهذه النّفس متقلّبةٌ، متردّدةٌ، تأتي الذّنب، وتلوم صاحبها عليه، وتردّه إلى الصّواب، تغفل عن الذّكر والطاعة، ثمّ تعود. يقول الحسن البصريّ رحمه الله: "إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا، يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى، أو نحو هذا من الكلام". ويقول بعض العلماء: إنّ النفس اللوامة نفسٌ ثالثةٌ، ومنهم من يقول إنّها وصفٌ للنّفسين السّابقتين المطمئنة والأمارة، فالنّفس المطمئنّة توبّخ صاحبها إذا تكاسل عن طاعةٍ، أو نسي فرضاً، أو عمل سوءاً، وإذا كانت نفسه أمّارةً بالسّوء تلومه إذا عمل خيراً أو أدّى فرضاً، قال تعالى في سورة القيامة: **(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)**[2].

5 - من حقوق النفس :

---

[1] – [يوسف: 53].

[2] – [القيامة : 1- 2].

العمل على إصلاحها، و إسعادها، و مساعدتها على طاعة الله، و الابتعاد عن كل ما يضر بها . لمنع الاعتداء على أعضاء الجسم ، و صيانتها عما يفسدها و يشقيها ، مع إشباع رغبات الجسد و الروح في اعتدال و توازن ، كالأكل و الشرب واللباس و العمل و العبادة .

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات،

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٣١﴾﴾[1].

﴿رَبِّكِ﴾:أي إلى ثوابه وموقف كرامته.

6 - دلالة استخدام كلمة ربك مع النفس المطمئنة.

المتأمل في هذه السورة يجد أن لفظة (رب) تكررت كثيرا فيها:

- **(ألم تركيف فعل ربك)**،
- **(فصب عليهم ربك)**،
- **(ابتلاه ربه)**،
- **(رب أكرمن)**،
- **(رب أهانن)**،
- **(وجاء ربك)**، وختمت في السورة بقوله:

---

[1] - [سورة الفجر آية 31]

- (**ارجعي إلى ربك**)، وكلمة الرب تستخدم دائما في مواضع الحياطة والرعاية والعناية، وكأنها بشرى منثورة على طول سورة الفجر، تقول للنبي ﷺ: لا تخافوا من طغيان الجبارين المفسدين، ولا تهتموا لانشغال الناس بالدنيا واستغراقهم فيها، فإني حافظكم، ومصلح أحوالكم، ولا عجب، فأنا سيدكم وأنتم مواليّ.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٢﴾﴾[1].

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾. أي في زمرة عبادي المكرمين.

ودلالة تكرار الأمر بالدخول مرتين، "ادخلي في عبادي "، "وادخلي جنتي "، فكرره مرة مع العباد ، ومرة مع الجنة، والتكرار دليل للاهتمام بالدخول بخصوصه، إبرازا له وتحقيقا للمسرة لهم.

7 - دلالة نسبة العباد والجنة إلى الله تعالى:

دلالة نسبة العباد والجنة إليه جل وعلا (عبادي، جنتي) ، الإضافة ههنا إضافة تشريف، كقوله تعالى: **(في مقعد صدق عند مليك مقتدر)**، وهذه الإضافة مما يزيد الالتفات إلى ضمير المتكلم حسنا بعد كلام الغائب بقوله ارجعي إلى ربك. يا أيتها النفس المطمئنة إلى ذِكر الله والإيمان به، وبما أعدَّه

[1] - [سورة الفجر آية 32]

من النعيم للمؤمنين، ارجعي إلى ربك راضية بإكرام الله لك، والله سبحانه قد رضي عنك، فادخلي في عداد عباد الله الصالحين، وادخلي معهم جنتي. ونلاحظ أن سورة الفجر هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها " **جاء**" للرب جل وعلا .

فلم يُذكر مجيءٌ أو ذهاب للرب جل وعلا في القرآن كله! ونلاحظ أن الرب عز وجل جاء والملائكة صفا صفا ، وكذلك "جيء يومئذ بجهنم" ، فجهنم كذلك موجودة في المشهد! فلماذا جاء الرب عز وجل؟ لأن الرب عز وجل بالمرصاد في الدنيا ، وهناك الكثير ممن يرون فعله سبحانه، فيُنكرون أن يكون موجودا ، فيجيء عز وجل في اليوم الآخر بشكل هو وحده أعلم به! فيحاسب العباد الحساب التام الكلي على أفعالهم ، فيجازيهم عليها بالعدل ، فلا يظلم أحد شيئا.

فهذا مشهد يجتمع الرب عز وجل فيه هو والملائكة ، ويجيء بجهنم، وهنا علينا أن نتذكر أن جهنم هي مرصاد كذلك! " إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً "[1]، فجهنم مرصاد، والله عز وجل بالمرصاد، ولكن جهنم "للطاغين مآبا"، فهي مرجع الطاغين، أما المؤمنين فمرجعهم إلى الله عز وجل ورحمته وجنته! فإذا جيء بجهنم، يتذكر الإنسان الناسي حيث لا ينفع التذكر، ولكن أنى له الذكرى، لقد فات الأوان، لهذا لا فائدة من هذه الذكرى في هذا اليوم ، فلقد ذكّر الأنبياء عليهم السلام في الدنيا كما جاء في سورة الأعلى وفي سورة الغاشية التي بعدها، ولكن لا سميع ولا مجيب! بل قوبلوا بالطغيان

1 – [النبأ: 21].

والفساد والانشغال بالأرض! فهناك يندم الكافر فيقول : "يا ليتني قدمت لحياتي"، أي يا ليتني قدمت في الدنيا لحياتي الحقيقية ، لأن الحياة الدنيوية مهما طالت، فهي منقطعة وزائلة، أما حياة الآخرة فهي الحيوان، قال تعالى في سورة العنكبوت: **(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَالْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)**[1]. فهي الحياة الباقية، فيتمنى أن يكون قدم لها ما ينجو به! كما يحتمل أنه تعالى قال في حق الكافر في سورة إبراهيم: **(وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ)**[2]، وقال سبحانه في سورة في سورة طه : **(فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى)**[3]، وقال سبحانه في سورة الأعلى : **(وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى * الذ ي يَصْلَى النار الكبرى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى)**[4]، فهذه الآية من سورة الغاشية دلت على أن أهل النار في الآخرة كأنه لا حياة لهم، و يكون المعنى : يا ليتني قدمت عملاً يوجب نجاتي من النار حتى أكون من الأحياء.

في هذا اليوم يكون العذاب شديدا جدا ، ويكون عذابا مباشرا لا ينتظر زمانا، أو يحتاج إلى عوامل، أو تدخل من أحد، **" فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ "**,

---

1 - [العنكبوت : 64].

2 - [إبراهيم : 17]

3 - [طه : 74]

4 - [الأعلى : 11 - 13]

أما النفس المطمئنة بذكر الله عز وجل، وبدينه وكتابه، فإنها ترجع إلى الله راضية بفعل الله وقضائه في الدنيا، وبثوابه في الآخرة, **"فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي "** ، فتنضم النفس المطمئنة إلى باقي عباد الله عز وجل، وتدخل جنة الله. فهناك كانت جهنم مرصادا للطاغين مآبا، أما هنا فللجنة مرجع المتقين، وفيها نعيم الله عز وجل.

المحور السابع:
القرآن الكريم كتاب هداية،
ومن هداية
آيات سورة الفجر

1 – بدأ الله سورة الفجر بالفجر، ثم ذكر الطغاة ليوضح أنه مهما طغى الظلم والظلام فهناك فجر.

2 – قال تعالى: (التي لم يخلق مثلها في البلاد)، لا يغرنكم التحضر والمدنية، فإنها لم تشفع لمن سبقكم من الطغاة، ولم تردّ عنهم العذاب.

3- بيان مظاهر قدرة الله في إهلاك الأمم العاتية والشعوب الظالمة، مستلزم لقدرته تعالى على البعث والجزاء والتوحيد والنبوة، وهو ما أنكره أهل مكة.

.**4** -.التحذير من عذاب الله ونقمه، فإِنه تعالى بالمرصاد، فليحذر المنحرفون عن سبيل الله، والحاكمون بغير شرعه، والعاملون بغير هداه، أن يصب عليهم سوط عذاب.

5 - من معتقدات الكفار الفاسدة، زعمهم أن رضى الله مرتبط بالغنى، فمن كان غنيا فالله راض عنه، ومن لم يكن غنيا فالله ساخط عليه.

6 - طغيان الإنسان سبب رئيسيفي كثرة الفساد (الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد) والطغاة هم رموز الفساد في العالم .

7 - تميزت سورة الفجر بذكر أسباب العذاب والهلاك : – الطغيان – كثرة الفساد – ترك مساعدة المحتاجين – حب المال وعدم إنفاقه في سبل الخير.

8 - عاد... ثمود...فرعون، "إن ربك لبالمرصاد" بالعيش مع هذه الآية تُمحى من قلبك هيبة الطغاة كأن لم تكن.

9 - (فأكثروا فيها الفساد) حتى فرعون لم يعاجله الله بالعقوبة رغم إفساده حتى (أكثر الفساد)، فما أحلم الله تعالى.

10 - العبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي،ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية،التي يجد غِبّ إضاعتها فيقول :(ياليتني قدمت لحياتي).

الخاتمة

قدمت سورة الفجر تصورا بديعا لمراقبة الله عز وجل لعباده، ولمحاسبته لهم، وإعداده لهم في الدنيا والآخرة ما يستحقون ، وإنزاله في الوقت المناسب، كما أن السورة من أولها إلى آخرها تثبت أن الله عز وجل يحاسب الناس على ما قدمته أيديهم ، فلا يظلمهم ، وكيف أنهم هم الذين يظلمون أنفسهم ، فينزلون العذاب والهلاك بأنفسهم في الدنيا ، ثم يكون مآلهم في الآخرة إلى النار ، أما الطائع المتقي فيُكرم في الدنيا ، ويكون مرجعه إلى جنة الله ورحمته في الآخرة، جعلنا الله وإياكم من أصحابها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهرس